

الرحالة المسلمون في العصور الوسطى

تأليف

الدكتور زكي محمد حسن

مدير دار الآثار العربية

عضو المجمع المصري للثقافة العلمية

الرحالة المسلمون في العصور الوسطى

للدكتور

زكى محمد حسن

مدير دار الآثار العربية عضو المجمع المصرى للثقافة العلمية

دكتور فى الآداب من جامعة باريس، وحائز دبلوم آثار الأمم الآسيوية والإسلامية من مدرسة اللوفر بباريس، ودبلوم مدرسة اللغات الشرقية بفرنسا، وليسانس الآداب من الجامعة المصرية، ودبلوم مدرسة المعلمين العليا بالقاهرة، والمساعد العلمى بمتحف برلين سابقا

الناشر

شركة نوابغ الفكر

للنشر والتوزيع

الطبعة الاولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨

شركة نوابغ الفكر
١٩ القطامية (القاهرة)
هاتف:٢٥٩٣٦٤٠٢ ،فاكس: ٢٧٨٦٥٥٥٣
E-mail: nawabgh_elfekr@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

حسن، زكى محمد / الرحالة المسلمون في العصور الوسطى
/ زكى محمد حسن
- ط ١ - القاهرة : شركة نوابغ الفكر ، ٢٠٠٨
١٦٠ ص ، ٢٤سم
تدمك :٩-١٩-٥-٦٣٠-٩٧٧-٩٧٨
١- الرحالة العرب
ا- العنوان

ديوى : ٩١٥,٦

رقم الايداع:١٦٨٣٨ -٢٠٠٨

فنحن الناس كل النا	س في البر وفي البحر

أخذنا جزية الخلق	من الصين إلى مصر

إلى طنجة، بل في كـ	ـل أرض خيلنا تسرى

إذا ضاق بنا قطر	نزل عنه إلى قطر

لنا الدنيا بما فيها	من الإسلام والكفر

فنصطاف على الثلج	ونشتو بلد التمر

أبو دلف مسعد بن المهلهل

رسوم هذا الكتـاب من نقل الأستـاذ فريد
شافعى المهندس بالقصور الملكية والمدرس
المنتـدب بمعهد الآثار الإسـلاميـة بجامـعة
فؤاد الأول.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لما بدأ القرن الثـامن الميلادي كان العرب قـد امتدت فتوحـاتهم وأصبح لهم ملك واسع الأرجاء. وفي بداءة هذا القرن فتحوا بلاد ما وراء النهر وبلاد الأندلس؛ فانبسطت إمبراطوريتـهم من حدود الهند شرقًا إلى المحيط الأطلسى غربًا، ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز شمالاً إلى صحارى إفريقية جنوبًا.

وكـان لاختـلاط العرب بالشـعوب الأخـرى أثر كبـير في نشـأة المدينة الإسلامـية وتطورها، فملك العرب ناصـية العلم والمعرفـة، وحفظوا لأوروبا تراث اليونان، وتقدمت على يدهم العلوم المختلفة.

وأتيح للمـسلمين في العـصور الوسطى أن يحـوزوا قصب السـبق في ميدان الرحلات والاكـتشافات والدراسات الجغرافـية. وأفادت أوروبا مما كان عند المسلمين من علم بأجزاء العالم المعروفة في القرون الوسطى.

والحق أن ازدهار الحضـارة الإسلامـية، وسـيادة المسلمين في البـر والبر والبحـر، وطبيـعة الدين الإسلامـي، كل ذلك كان من شأنه أن يشـجع على الأسفار والرحلات.

* * *

فالجـزء الأكبر من العـالم المعروف في فجـر الإسلام كانت تزدهر فـيه مدنية الإسلام وتدير دفته حكومة إسلامـية. ثم فقدت الإمبراطورية الإسلامية

وحدتها السياسية منذ منتصف القرن الثانى الهجري (الثامن الميلادي)؛ ولكن روابط الدين واللغة والثقافة ظلت تجمع بين سكان الدول الإسلامية، فكانوا يشعرون بأنهم أبناء إمبراطورية إسلامية بعيدة الأطراف. وقد كانت تلك الروابط قوية في العصور الوسطى. ولم تكن القوميات الإقليمية قد عظم شأنها بعد. وكانت أنحاء هذا الملك الواسع الذى أسسه المسلمون تتطلب الدراسة والوصف، تمهيدًا لتطبيق أحكام الشريعة، وتسهيلا لمهمة الولاة. فسافر القوم، لدراسة البلاد وطرقها وحاصلاتها وخراجها وما إلى ذلك، مما لابد منه للتأليف في علم تقويم البلدان. وطبيعي أن تكون الرحلات والأسفار من أول السبل لطلب العلم في تلك العصور؛ فقد كانت الكتب نادرة، وكانت الدراسة العملية تقوم مقام ما نصنعه اليوم من تتبع المراجع والمؤلفات، التى تزدحم بها خزانات الكتب الخاصة والعامة. وفضلا عن ذلك فقد تعددت مراكز الثقافة في ديار الإسلام، وكان رجال العلم ينتقلون في طلبه من إقليم إلى آخر، يدرسون على مشاهير الأساتذة ويلقون أعلام الفقهاء والمحدثين واللغويين ثم الأطباء والفلاسفة والرياضيين.

* * *

وكذلك كان الحج من أعظم بواعث الرحلات، فإن ألوف المسلمين يتجهون كل عام من شتى أنحاء العالم الإسلامي إلى الحجاز، لتأدية فريضة الحج وزيارة قبر النبي. وكان الحجاج عند عودتهم إلى بلادهم يخبرون عن الطرق التى سلكوها والأحداث التى صادفوها. وقد كان النابهون منهم يدونون مشاهداتهم، ويعملون على أن ينفعوا المؤمنين بتجاربهم؛ فيصفون رحلاتهم، تسجيلا لفضلهم، وهداية لغيرهم، ولفتًا لنظر أولى الأمر إلى ما يجب إصلاحه، كما كان أهل الخير والتقوى في شتى البلاد الإسلامية

يرحبون بإخوانهم المسلمين الميممين شطر الأراضي المقدسة ويعنون بإقامة الرباطات وحبس الأوقاف للإنفاق في سبيل راحتهم.

***

واتسع نطاق التجارة عند المسلمين اتساعًا لم يبلغه عند شعب آخر قبل كشف أمريكا؛ فانتشرت قوافل التجار المسلمين في القسم الأعظم من العالم المعروف في ذلك العهد، وخاضت سفنهم عباب البحار والمحيطات، وازدهرت على أيديهم الطرق التجارية بين بحار الصين وأسيا الوسطى وسواحل بحر البلطيق والأندلس وشواطئ المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط وساحل أفريقيا الشرقى وجزر المحيط الهندى وصحارى السودان. وكان التجار يحملون السلع بين الأسواق المختلفة في العالم الممدن حينئذ، ويقومون بالرحلات الطويلة في هذا السبيل. وحسبنا أن نشير إلى الكنوز الوافرة من النقود الإسلامية التى عثر عليها في الروسيا وفنلندة والسويد والنرويج، بل في سويسرا وجزيرة إيسلندة والجزائر البريطانية. وترجع قطع العملة المذكورة إلى الفترة الواقعة بين نهاية القرن الأول وبداية الخامس بعد الهجرة (السابع وبداية الحادي عشر الميلادي). ولسنا نجزم بأن كثيرًا من التجار المسلمين أنفسهم وصلوا إلى أيسلندة أو النرويج أو الجزر البريطانية؛ ولكن كتب الرحلات وتقويم البلدان عندهم تشير إلى ترددهم على جنوبي الروسيا، وإلى وصولهم أوروبا الوسطى. ويشهد ذلك كله بما كان للمسلمين من سيادة تجارية في تلك البقاع.

وقد كتب المقدسي بيانًا بالسلع التى كان المسلمون يحصلون عليها من جنوبي الروسيا والبلاد الأوروبية الشمالية؛ وقوامها أنواع الفراء والجلود والشمع والنشاب والقلانس والغرا والعسل والسيوف والدروع والأغنام

والبـقر، كل ذلك فـضلا عن الرقـيق من الصقـالبة. والمعـروف أن المسلمين استـعملوا لفظ «الصـقالبة» بمعنـى أوسع، فكان لا يشمل عندهـم السـلافيين حسب، بل امـتد إلى الجرمان وسـائر سكان أوروبا. أما أهم ما كـان يحمله التجار المسلمون إلى تلك الأقاليم فالمنسوجات بأنواعها وبعض التحف المعدنية ثم الفاكهة. وسوف نرى عند الكلام على الرحالة أنفسهم عظم تجارة المسلمين في شرقي أفريقيا ووسطها وإقليم غانة وفي بحار الصين وجزر الهند الشرقية. وحسـبنا ما ذكره ابن جـبير وابن بطوطـة من أن التجار في عـدن كانت لهم ثروات طائلة، وكان بعضهم يملك المراكب العظيمـة لنقل سلعهم. أما التجارة بين الشرق الأدنى والأمم المسيحية في البحر الأبيض المتوسط فقد كان معظمها في يد اليهود(١) ولكن الرحالة والتـجار المسلمين كانوا يزورون القـسطنطينية

(١) يشهد بذلك النص المشهور الذى جاء في كـتاب «المسالك والممالك» لابن خرداذبه المتوفى في بداءة القرن الرابع الهـجري (١٠م). وقد تحدث فيـه عن مصر ونشاط التجـار اليهود فذكر أنهم كانوا يتـكلمون بالعربية والفارسية والرومـية والأفرنجية والأندلسيـة والصقلبية وأنهم يسافرون من المـشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبـحراً، يجلبون من الغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ويركبون من فرنجة في البـحر الغربي فيخـرجون بالفرما ويحملون تجـارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخـًا، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الحجاز وجدة ثم يمضـون إلى السند والهـند والصين فـيـحملـون من الصين المسك والعـود والكافـور والدارصينى وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يـرجعوا إلى الفرما، ثم يركبون في البحر الغربي، فربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية فباعوها للروم، وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فـيبيعونها هناك، وإن شـاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البـحر الغربي فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ثم يركبون في دجلة إلى الإبلة، ومن الإبلة إلى عمان والسند والهند والصين، كل ذلك متصل بعضه ببعض (ابن خرداذبة ص١٥٣).

والمدن التجارية في شبه جزيرة إيطاليا وكان للمنسوجات الشرقية والسجاد سوق رائجة في أوروبا.

ومن الطريف أن بعض المسلمين كانوا يجمعون بين التجارة وطلب العلم، من ذلك أن أحد رفقاء المقدسي في السفينة إلى عدن صارحه بأنه يخشى عليه إذا دخل هذا الثغر «فسمع أن رجلا ذهب بألف درهم فرجع بألف دينار وآخر دخل بمائة فرجع بخمسمائة، طلبت نفسه التكاثر» وانصرف عن جمع العلوم إلى التجارة. فدعا المقدسي أن يعصمه الله؛ ولكنه لما دخل عدن وسمع عن إثراء التجار أكثر مما قال رفيقه في السفينة، غره ذلك وعقد العزم على السفر بتجارة إلى ساحل إفريقية الشرقي، واشترى مع شريك له ما يلزم للتجارة مع تلك الأقاليم، ولم يثنه عن هذا العزم ويبقه لطلب العلم إلا موت هذا الشريك. وسيمر بنا في الصفحات التالية أن ياقوت صاحب «معجم البلدان» كان ممن رحلوا للتجارة وطلب العلم.

***

وكان بعض أمراء المسلمين يوفدون الرسل والسفراء إلى غيرهم من أمراء المسلمين، فدعا ذلك أحيانًا إلى القيام برحلات طريفة إلى أصقاع لا يألفها المسلمون. من ذلك رحلة ابن فضلان إلى جنوبي الروسيا. ومن ذلك أيضًا السفارة الأندلسية نحو سنة ٣٦٢هـ (٩٧٣م) إلى أوتو الأكبر إمبراطور الجرمان. والمحتمل أن بعض أعضاء تلك السفارة كانوا مصدر ما كتبه القزويني عن بعض البلاد الألمانية.

وطبيعي أن كثيرين من المسلمين كانوا يرحلون سعيًا في طلب الرزق. وحسبنا أن نشير إلى الخياط البغدادي الذى قابله الرحالة ابن فضلان في إقليم الفولجا. ثم كان أعلام الفنانين ومهرة الصناع ينتقلون من إقليم إلى آخر لينتفع

الأمـراء بجهـودهم؛ أو كـانوا يؤمرون بـالسفـر إلى بعض الأطراف النائبـة، للاشتراك في المنشئات الجديدة، أو المساهمة في تجديد بناء أو زخرفة عمارة أو إنتاج التحف الفنية النفسية.

ولسنا ننسى في هذه المناسبـة أن إكرام الضيف عند الشرقـيين، وبساطة العـيش في القـرون الوسطى، وحث الإسلام علـى السفـر بتـخفـيف بعض الواجبات الدينية على المسافرين، كـل ذلك سهّل الرحلات وشجع على القيام بها.

***

ومن المحتمل أن إباحة تعدد الزوجـات في الإسلام كانت تخفف بعض متاعب الأسـفار، ولا تجعل الرحالة المسلمين محل شكوك أو مصـدر متاعب اجتماعية. فكان بعضهم يتزوج في البلاد التى ينزل فيها فترة من الزمن. ومن الطريف في هذا الصـدد أن الرحـالة ابن بطوطة تزوج في مـصر مـرتين على الأقل، وكـانت له في الصدد أن الرحـالة ابن بطوطة تزوج في مـصر مـرتين على الأقل، وكانت له في جزائر الملديف أربع زوجـات. وقد كتب عن هذه الجـزائر: «والتزوج بهـذه الجزائر سـهل، لندارة الصـداق، وحسن مـعاشـرة النسـاء... وإذا قـدمت المراكب تـزوج أهلهـا النسـاء. فـإذا أرادوا السـفـر طلقـوهن. وهن لا يخـرجن عن بـلادهن أبدا.. ولم أر في الدنيـا أحـسن معاشرة منهن. ولا تكل المرأة عندهم خِدْمـة زوجها إلى سواها؛ بل هي تأتيه بالطعـام، وترفعـه من بين يديه، وتغسـل يده، وتأتيه بالماء للوضـوء، وتغم رجليه عند النوم. ومن عوائدهن ألا تـأكل المرأة مع زوجها. ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة. ولقـد تزوجت بها نسـوة؛ فأكل معى بعـضهن بعد مـحاولة؛ وبعضهن لم تأكل معى، ولا استطعت أن أراها تأكل» وكذلك أعجبه من نساء

مدينة زبيد باليمن «أن للغريب عندهن مزية؛ ولا يمتنعن من تزوجه، كما يفعله نساء بلادنا (أي المغرب). فإذا أراد السفر خرجت معه وودعته. وإن كان بينهما ولد فهي تكفله، وتقوم بما يجب له، إلى أن يرجع أبوه. ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها. وإذا كان مقيمًا، فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة. لكنهن لا يخرجن عن بلدهن أبدا. ولو أعطيت إحداهن ما عسى أن تعطاه، على أن تخرج من بلدها لم تفعل».

***

ومن القصص الطريفة التى تشهد باتساع الأسفار الإسلامية قصة رواها الرحالة ابن بطوطة الذى سيلى ذكره في هذا الكتاب. وتشير هذه القصة إلى أن الرحالة المسلم كان يعثر أحيانًا في أبعد آفاق المعمورة عن بلاده على مواطن له من التجار أو السياح. قال ابن بطوطة في كلامه على إقامته بمدينة قنجنفو بالصين «وبينما أنا يوما في دار ظهير الدين القرلانى، إذا بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم، فاستؤذن له عليّ. وقالوا مولانا قوام الدين السبتى؛ فعجبت من اسمه. ودخل إلى. فلما حصلت المؤانسة بعد السلام، سنح لي أني أعرفه. فأطلت النظر إليه. فقال: أراك تنظر إلى نظر من يعرفني! فقلت له: من أي البلاد أنت؟ فقال: من سبته (على شاطئ مراكش في مواجهة جبل طارق). فقلت له: وأنا من طنجة. فجدد السلام على، وبكى حتى بكيت لبكائه. فقلت له: هل دخلت بلاد الهند؟ فقال لي: نعم، دخلت حضرة دهلى. فلما قال لي ذلك تذكرت له. وقلت: أأنت البشرى؟ قال: نعم. وكان وصل إلى دهلى مع خاله أبي القاسم المرسى، وهو يومئذ شاب لا نبات بعارضيه من حذاق الطلبة يحتفظ الموطأ. وكنت أعلمت سلطان الهند بأمره، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار، وطلب منه الإقامة عنده فأبى. وكان قصده

في بلاد الصين. فعظم شأنه بها واكتسب الأموال الطائلة. أخبرني أن له نحو خمسين غلامًا ومثلهم من الجواري. وأهدى إلى منهم غلامين وجاريتين وتحفًا كثيرة. ولقيت أخاه بعد ذلك ببلاد السودان. فيا بعد ما بينهما!».

❊ ❊ ❊

وهكذا نرى أن المسلمين في العصور الوسطى أتيح لهم القيام بكثير من الرحلات والأسفار. والحق أن ما كتبه المؤلفون المسلمون فيما بين القرنين الثالث والتاسع بعد الهجرة (التاسع والخامس عشر بعد الميلاد) عن الرحلات كثير جدًا؛ ولكن المعروف أن الرحالة لم يكتبوا أخبار رحلاتهم في مؤلفات قائمة بذاتها إلا نادرًا. أما معظمهم فقد أدمجوا حديث تلك الرحلات فيما ألفوه من كتب التاريخ أو تقويم البلدان. كما أشار بعض المؤلفين إلى رحلات قام بها غيرهم ولم يصل إلينا شيء عنها من تأليف أصحابها أنفسهم. وفضلا عن هذا كله فثمة رحلات قام بها الملاحون التجار، ضاعت أخبارها أو لم يدونها أصحابها، وإن كانوا من المصادر التى نقل عنها المؤرخون والجغرافيون الكثير من وصف البلاد النائبة، والتى يرجع إليها ما نراه من قصص البحر في الأدب العربي مثل قصة السندباد البحري.





سلام الترجمان

إن رحلة سلام الترجمان إلى سور الصين الشمالي قد تكون حقيقة تاريخية، وإن كان سببها الذى يذكره الجغرافيون العرب - كالقزويني وياقوت - على لسان الرحالة نفسه، أشبه بأسطورة خيالية. والظاهر أن حديثها كان مشهورًا في العصور الوسطى. وقصة هذه الرحلة أن سلاما الترجمان يزعم أن الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٢٧-٢٣٢هـ أي ٨٤٢-٨٤٧م) رأى في المنام أن السد الذى بناه الإسكندر ذو القرنين (والذى يقع بين ديار المسلمين وديار يأجوج ومأجوج) مفتوح؛ فأرعبه هذا المنام، وأمر سلاما بأن يرحل ليتفقد السد. فسار الترجمان من مدينة سر من رأى، ومعه خمسون رجلا ومائتا بغل تحمل الزاد والماء؛ وكان الخليفة قد أعطاه كتابًا إلى حاكم أرمينية ليقضى حوائجهم ويسهل مهمتهم. فعنى هذا الحاكم بالرحالة ورجاله، وزودهم بكتاب توصية إلى حاكم إقليم السرير. وكتب لهم هذا الحاكم إلى أمير إقليم اللان. وكتب هذا الأمير إلى فيلانشاه. وكتب لهم فيلانشاه إلى ملك الخزر في إقليم بحر قزوين؛ فوجه معهم خمسة من الأدلاء وسار الجميع ستة وعشرين يومًا؛ فوصلوا إلى أرض سوداء كريهة الرائحة وكانوا قد حملوا

معهم بإشارة الأدلاء خلا لتخفيف هذه الرائحة. وسار الركب في تلك الأرض عشرة أيام ثم وصلوا إلى إقليم فيه مدن خراب، وساروا فيها سبعة وعشرين يوما. وقال الأدلاء إن شعب يأجوج ومأجوج هو الذى خرب تلك المدن. وانتهوا إلى جبل فيه السور المنشود. وعلى مقربة منه حصون تسكنها أمة مسلمة تتكلم العربية والفارسية؛ ولكنها لم تسمع بخليفة المسلمين قط. وتقدم الركب إلى جبل لا نبات عليه يقطعه واد عرضه مائة وخمسون ذراعا. وفي الوادي باب ضخم جدًا من الحديد والنحاس، عليه قفل طوله سبعة أذرع وارتفاعه خمسة، وفوق الباب بناء متين يرتفع إلى رأس الجبل. وكان رئيس تلك الحصون الإسلامية يركب في كل جمعة ومعه عشرة فرسان، مع كل منهم مرزبة من حديد، فيجيئون إلى الباب ويضربون القفل ضربات كثيرة؛ ليسمع من يسكنون خلفه، فيعلموا أن للباب حفظة، وليتأكد الرئيس وأعوانه الفرسان من أن أولئك السكان لم يحدثوا في الباب حدثًا.

ولما فرغ سلام الترجمان ورفقاؤه من مشاهدة السور رجعوا إلى سر من رأى مارين بخراسان. وكان غيابهم في هذه الرحلة ثمانية عشر شهرًا.

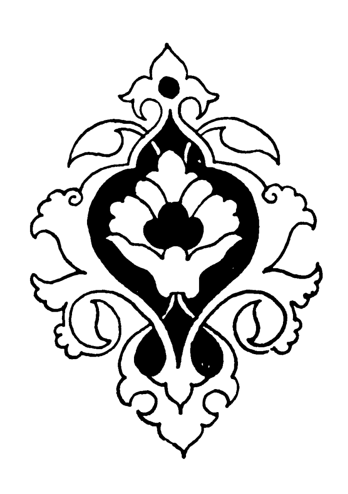
وقد ذكر المستشرق الفرنسي كرادى فو Carra de Vaux أن من المحتمل أن هذه الرحلة كانت إلى الحصون الواقعة في جبال القوقاز وعلى مقربة من دربند (أو باب الأبواب)، في إقليم داغستان غربي بحر قزوين. ومهما يكن من الأمر فإننا لا نعرف عنها إلا بعض المقتطفات في كتب التاريخ والجغرافية، ولا سيما «نزهة المشتاق» للإدريسى و«معجم البلدان» لياقوت.

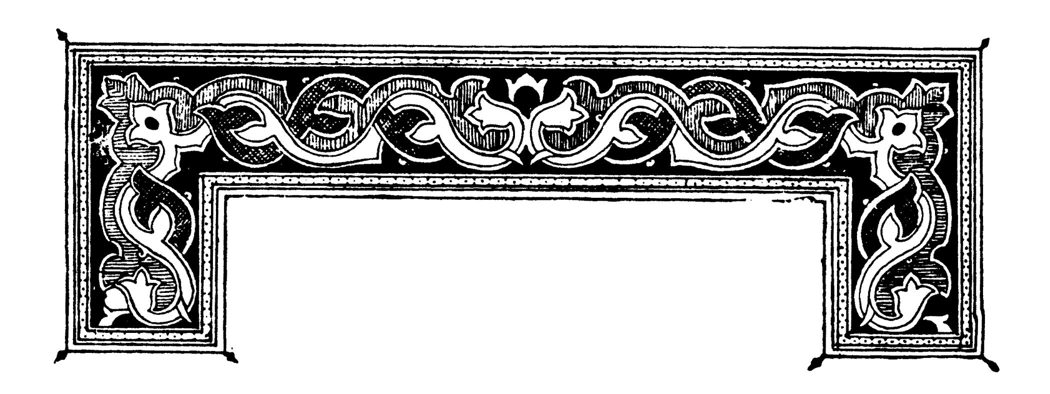
❊ ❊ ❊

ومن غريب ما نقله أبو حامد الأندلسي في كتاب «العجائب» عن سلام الترجمان أنه قال:

«وأقمت عنـد ملك الخزر أيامًا، ورأيت أنـهم اصطادوا سمكة عظيـمة جدًا وجذبوها الجبال، فانفتح أذن السمكـة وخرجت منها جارية بيضاء حمراء طويلة الشعر حسنة الصورة، فأخرجـوها إلى البر وهي تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصـيح وقد خلق الله تعالى في وسطهـا غشاء كالثوب الـصفيق من سرتها إلى ركبتها كأنه إزار مشدود على وسطها، فأمسكوها حتى ماتت».

وقد تساءل الدكـتور حسين فوزى في كتـابه «حديث السندباد القديم». (ص١٣٥) عن تفـسير مـا رأى سلام التـرجمـان عند ملك الخزر وكـتب في ذلك: «أيكون الملك قـد عـرض على خليفـة المسلمين منظرًا تمـثيليًـا من نوع «البانتوميم» احتفاء به واحتفالاً بقـدومه، وفهمه هذا الساذج على أنه حقيقة؟ أو أن ملك الخزر كان ماجنًا مـهزارًا لا يرى عيبًا أن يسخر من ضيـفه فيدخل عليه منظر الغانية التى تخرج من أذن سمكة عظيمة جدا، فيبتلع (أى فيصدق) سلام المنظر والغانية والسمكة الكبـيرة؟» وعندنا أن من المحتمل أيضًا أن يكون سلام التـرجمان سـمع من بعض العامـة في بلاد الخزر حديث تـلك السمكة فعلقت بذهنه ونسبها إلى مشاهداته الخاصة.





ابن وهب القرشى

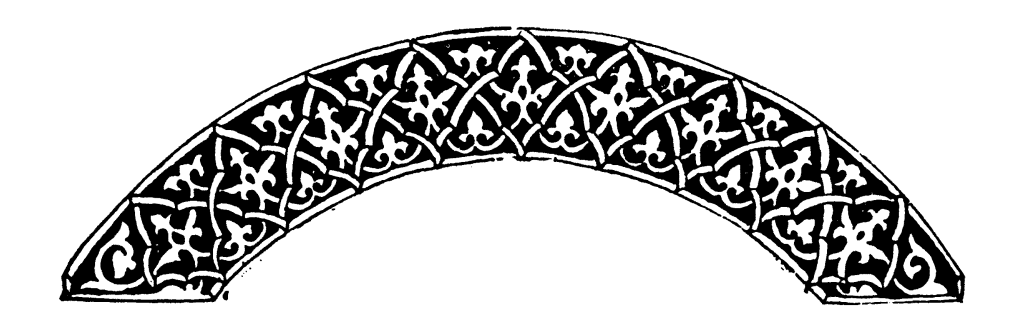
كـان ابن وهب من ذوى الثـروة والجـاه في العـراق ومن ولد هبـار بن الأسود. وتذكـر بعض المصادر التاريخـية أنه قام برحلة إلـى الصين نحو سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م)، فترك مـدينة البصرة عند ما خربهـا الزنج وخرج من ميناء سـيراف علـى بعض مراكب هـندية. وساح طويـلا في ممالك الهند، إلى أن انتهى إلى مـدينة خانفو (كنتـون) بمملكة الصين. ثم تقدم إلى مدينة خـمدان عـاصمـة تلك المملكة، وتقع هذه المدينة على مـقـدار شهـرين من خانفـو. والتمس ابن وهب مواجهة الإمبراطور؛ ولكنه لم يفلح إلا بعد انتظار طويل، وبعد أن أرسل الإمـبراطور إلى حاكم خـانفو يأمره بالبـحث عن حقيـقة ابن وهب والاستفسار من التجار العرب عما يدعيه من قرابته لنبي المسلمين. فلما كتب الحـاكم بصحـة نسبه أكـرم الإمبراطور مـثواه وأذن له في الوصـول إليه وناقشه في الدين والسياسة؛ ثم عرض عليه صور بعض الأنبياء، مثل نوح في السفـينة، وموسى وبنى إسرائيل، وعيـسى على حماره والحواريون مـعه، ثم

محـمد على جـمل وأصحـابه محـدقون به[1]. وأمر له بعـد ذلك بالهدايا النفسية. وأوصى به حاكم خانفو.

ولا نعرف أن ابن وهـب دون ما شاهده في رحلتـه؛ ولكن لا شك في أنه تحدث عنها. وقد أفاد من هذا الحديث مؤلف اسمه أبو زيد حسن، سوف يأتي الكلام عليـه. كمـا أشار المسـعودي إلى هذه الرحلة فـي كتابـه «مروج الذهب»، في الفـصل الذى عـقـده للحـديث عن ملوك الصين. وقـد رجح المستشرق رينو Reinaud أن أبا زيد حسن لقى المسعودي وتبادلا ما كانا يعرفانه عن الهند والصين والبحار الشرقية.



(١) انظر مقـالنا «السيرة في الفن الإسـلامي» في عدد مايو سنة ١٩٤٠ من مـجلة المقتطف، وراجع كتابنا «الصين وفنون الإسلام» ص١٢ و ٣٩.



سليمان السيرافى

تشير المصادر التاريخية في اللغتين العربية والصينية إلى وجود جموع من المسلمين في الصين في عـهد أسـرة تنج التى حكمت الصين بين عـامى ٦١٨ و٩٠٦م. وكان معظمهم من التجار الذين نزلوا الثغور.

وكان التجار المسلمون المنصرفون إلى الشرق الأقصى يبحرون من البصرة ومن سيـراف على الخليج الفارسي أو «الخليـج الصيني» كمـا كانوا يسـمونه أحيـانًا في القرن الثالث الهـجري (التاسع الميـلادي). وكانت السفن الصـينية الكبيرة تصل إلى ثغر سيراف، وتشحن بالبضائع الواردة من البصرة؛ ثم تتجه إلى ساحل عمان وتعبر المحيط الهندي مارة بسرنديب وجزائر البحار الجنوبية، حتى تصل إلى مدينة خانفـو، حيث كانت تعيش جالية إسلامـية وافرة العدد عظيمة الشأن. وفي كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه عبارة تفيد أن بعض تجار المسلمين وصلوا إلى شبه جزيرة كوريا.

والمعروف أن قـدوم التجار الصـينين أنفسهم إلى الخليج الفـارسي أخذ يهبط تدريجيًـا منذ بداية القرن الثالث الهجـري (التاسع الميلادي)؛ على حين زاد سفر العرب إلى البحار الجنوبية. ثـم حدث أن خرب ثغر خانفو نحو سنة

٢٦٤هـ (٨٧٨م) بسبب بعض الاضطرابات في بلاد الصين؛ فقتل كثير من المسلمين، ولم تعد المواصلات البحرية تامة الانتظام بين الصين والشرق الأدنى في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وأصبحت السفن من الجانبين لا تبحر إلا إلى مدينة في منتصف الطريق بين البلدين تسمى «كلاه»، اشتهرت بمناجم القصدير. وأكبر الظن أنها كانت من ثغور الشاطئ الغربي في ملقا.

وقد أشار أبو زيد حسن والمسعودى إلى هذه الحالة في حديثهما عن رجل من أهل مدينة سمرقند «خرج من بلاده ومعه متاع كثير حتى انتهى إلى العراق، فحمل من جهازه وانحدر إلى البصرة، وركب البحر حتى وصل إلى بلاد عمان، وركب إلى بلاد «كلاه» وهي النصف من طريق الصين أو نحو ذلك، وإليها تنتهى مراكب الإسلام من السيرافيين والعمانيين في هذا الوقت، فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين في مراكبهم. وقد كانوا في بدء الزمان بخلاف ذلك؛ وذلك أن مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والأبلة والبصرة... ولما عدم العدل وفسدت النيات... التقى الفريقان جميعًا في هذا النصف. ثم ركب هذا التاجر من مدينة كلاه في مراكب الصين إلى مدينة خانفو».

* * *

ومن المسلمين الذين زاروا الهند والصين عدة مرات رحالة عربي اسمه سليمان، لا نكاد نعرف شيئًا عن ترجمة حياته؛ ولكن وصف سياحته في الهند والصين انتهى إلينا. فقد كتبه سنة ٢٣٧هـ (٨٥١م) - ولهذا الوصف ذيل وضعه في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) مؤلف من سيراف اسمه أبو زيد حسن، واعتمد فيه على ما سمعه من قصص الرحالة والتجار في بحار الصين، ولا سيما ابن وهب الذى مر ذكره. وقد طبعت هذه الرحلة

سنة ١٨١١ على يد المستشرق لانجلس Langlès ثم نشرها المستشرق رينو Re-inaud مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٤٥ . كمـا أحاط بها المستشرق فران Ferrand في مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية الـعربية والفارسية والتركية الخاصة بالشرق الأقصى والتى ترجـمها إلى الفرنسية وعلق عليـها ونشرها في مؤلف من مجلدين.

وتحدث الدكتور حسين فوزى عن هذه الرحلة في كتابه «حديث السندباد القديم» (ص٢١-٣٢) وقـال إنها «تعـد من أهم الآثار العربيـة عن الرحلات البحريـة في المحيط الهندي وبحر الصين في القرن التـاسع. وربما كانت الأثر العربي الـوحيد الذى يتـحدث عن سـواحل البحـر الشرقى الكبيـر والطريق الملاحى إليها على أسـاس الخبرة الشخصية مع التـزام الموضوع وعدم الخروج عنه إلى أحاديث تاريخية وغيرها مما عودنا الجغرافيون والمؤرخون العرب؛ وإذا رأينا فيما بعـد ابن خرداذبة وابن الفقيه والاصطخرى وابـن حوقل والمسعودى يتكلمون على أسـاس من المعرفة الشخـصية لبعض المواضع التى يـذكرونها، فإنهم أيضا ينقلون الكثير عن ذلك الأثر العربي الأول بلفظه ومعناه في بعض الأحيان، وبما بكاد يكون لفظه ومعناه في البعض الآخر».

وتمتاز رحلة سليمـان والذيل الذى وضعه أبو زيد بما فيـهما من وصف صادق للطرق التجارية ، ولـبعض العادات والنظم الاجتماعيـة والاقتصادية، ولأهم المنتـجـات في الهند وسـرنديب وجـاوه والصين، مع قلة الخـرافـات والأساطير التى تكثر في أحاديث البحـارة. وتمتازان أيضا بالأخبار الوافية عن علاقة المسلمين بالصين في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة (التاسع والعاشر بعد الميلاد). من ذلك أن مدينة خانفو، أكبـر أسواق الصين حينئذ، كان فيها رجل مـسلم «يوليه صـاحب الصين الحكم بين المسلـمين الذين يقصـدون إلى تلك الناحـية... وإذا كان في العـيد صلى بالمسلمين وخطب ودعـا لسلطان

المسلمين» والواقع أن المصادر الصينية تشهد بوجود هذا النوع من الامتيازات، وبأنه امتد إلى الجاليات الإسلامية الأخرى في سائر مدن الصين؛ فكان لكل منها قاضيها وشيوخها ومساجدها وأسواقها وإن كانت الحكومة الصينية احتفظت لنفسها بحق النظر في الجرائم التى قد يترتب عليها النفى أو الإعدام. والحق أن الاختصاصيين في الدراسات الصينية من المستشرقين ثبت عندهم صدق كثير مما جاء في حديث سليمان عن أحوال الصين الاجتماعية.

ومن الطريف أن سليمان السيرافى أول مؤلف غير صيني يشير إلى الشاى. وذلك حين يذكر أن ملك الصين يحتفظ لنفسه بالدخل الناتج من محاجر الملح ومن نوع من العشب، يشربه الصينيون في الماء الساخن ويباع منه الشيء الكثير في جميع مدنهم ويسمونه «ساخ».

وقال سليمان في وصف بعض جزائر المحيط الهندي أن لأهلها ذهبًا كثيرًا «وأكلهم النار جيل وبه يتأدمون ويدّهنون، وإذا أراد واحد منهم أن يتزوج، لم يزوج إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم، فإذا قتل اثنين زوّج اثنين، وكذلك إن قتل خمسين زوّج خمسين امرأة بخمسين قحفًا وسبب ذلك أن أعداءهم كثير، فمن أقدم على القتل أكثر كانت رغبتهم فيه أوفر».

ومما ذكره أبو زيد حسن، في الذيل الذى وضعه لرحلة سليمان، أن السفن القادمة من سيراف متجهة إلى البحر الأحمر كانت إذا وصلت جدة أقامت بها، ونقل ما فيها من السلع إلى مراكب خاصة تحمله إلى مصر، وتسمى مراكب القلزم، وذلك لأن المراكب الأخرى كانت لا تستطيع الملاحة في شمالي البحر الأحمر.

وأتى أبو زيد بكثير من أخبار الهند وسائر الأقاليم المطلة على المحيطين الهندى والهادى وتحدث عن العنبر واللؤلؤ والمسك ومصادرها. وأشار إلى قلة الاتصال بالصين بعد رحلات سليمان وذلك بسبب قيام ثورات فيها.



ابن فضلان

هو أحمـد بن فضلان بن العبـاس بن راشد. كان مولى لأحـد الخلفاء العبـاسيين وللقائد محـمد بن سليمان، الذى أفـلح في هزم الدولة الطولونية وإعادة مصر إلى حظيرة الخلافة سنة ٢٩٢هـ (٩٠٥م). ولسنا نعرف من سيرة اين فضـلان شيئًـا كثيـرًا. والذى لا نشك فيـه أنه قام سنة ٣٠٩هـ (٩٢١م) برحلة إلى بلاد البلغار. وهم الشـعب الذى أسس في بداءة العصور الوسطى دولتين: أقدمهمـا في حوض الفولجا الأوسط (أو نهر اتل كما تسـميه المصادر العربيـة)، والأخرى في حوض الطونة. والأولى هي التى زارها ابن فـضلان وانتشـر فيها الإسـلام. وتطلق كلمة بلغار على الشـعب وعلى البلاد، وعلى عاصمتـها، التى كانت تقع شرقي نهر الفـولجا، والتى لا يزال بعض أطلالها قائمًـا على مقربة من مـدينة قازان الحالـية وعلى نحو سـتة كيلو مـترات من شاطيء الفولجا الأيسر، وحيث الدرجة خمس وخمسون من العرض الشمالي وست وستون من الطول الشرقي. ولسنا نعرف على وجه التحقيق متى اعتنق البلغار الإسـلام. فابن رسـتـه الذى ألف كتابه «الأعـلاق النفسيـة» حول سنة ٢٩١هـ (٩٠٣م) ذكر فـيه أن «أكثـرهم ينتحلون دين الإسلام، وفي مـحالهم

مساجد ومكاتب ولهم مؤذنون وأئمة... وملابسهم شبيهة بملابس المسلمين ولهم مقابر مثل مقابر المسلمين». أما رحلة ابن فضلان فيبدو منها أنهم لم يدخلوا في الإسلام إلا قبيل زيارة هذا الرحالة.

والحق أن لهذه الرحلة شأنًا خاصًا؛ لأن ابن فضلان كان في بعثة أرسلها الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى ملك البلغار، بعد أن أسلم وكتب إلى الخليفة يسأله «أن يبعث إليه من يفقهه في الدين، ويعرفه شرائع الإسلام ويبنى له مسجدًا، وينصب له منبرًا ليقيم عليه الدعوة في جميع بلده وأقطار ملكته، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له». وقد أجابه الخليفة إلى طلبه. وأرسل إليه هذه السفارة، التى كان ابن فضلان الخبير الديني فيها، والتى كان على رأسها مندوب من الخليفة لبحث الأمور السياسية والحربية. وغادر المندوبون بغداد في ١١ من صفر سنة ٣٠٩هـ (٢١ من يونيه سنة ٩٢١)، متجهين إلى بخاري فخوارزم فبلاد البلغار، حيث وصلوا في ١٢ من محرم سنة ٣١٠هـ (١٢ من مايو سنة ٩٢٢).

ورسالة ابن فضلان في وصف هذه الرحلة نقل عنها المؤلفون المسلمون منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كالاصطخرى والمسعودى. ثم نقل ياقوت الحموى أجزاء كبيرة منها فيما كتبه عن مادة «أتل» و«باشغرد» و«بلغار» و«خزر» و«خوارزم». وقد نشرت هذه الرسالة لأول مرة بعناية المستشرق فرهن Fraehn في سنت بطرسبورج سنة ١٨٢٣ ومعها مقتطفات أخرى مما كتبه المسلمون عن الروس[١]. وحديثًا أفاد منها المستشرق الروسى برتولد في المقال

(١) Ch.M. Fraehn: Ibn Fozlan's und and anderer Araber Araber Berichte uber die Russen alterer Zeit (St. Peterabourg 1823)

الذى كتبه عن «البلغار» في دائرة المعارف الإسلامــية، ثم الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام في مقالين حديثين عن البلغــار المسلمين. وقد عثر العالم التركى أحمد زكى الوليــدى منذ عشرة أعوام على مخــطوط من رحلة ابن فضلان أو فى مادته من المقــتبســات المعروفة وله مقــدمة وصف فيــها رحلته عبــر فارس وبخارى وخــوارزم في طريقة إلى بلاد البلغار كمــا أنه يحتوى على كثــير من الزيادات والتفصيلات.

والحق أن ابن فضــلان ترك لنا في وصف رحلته صورة واضحــة للبلغار وحضارتهم وعادتهم وتجارتهم. ويشهد مــا كتبه في هذا الصدد بأنهم كانوا لا يزالون دون مــا وصل إليه المسلمــون في مــدينتهم، وإن بدت بعض عــاداتهم طريفة، كــأن يأكل كل واحد من مائدته لا يشــاركه فيهــا أحد ولا يتناول من مائدة غــيره شيئًــا، وكلبسهم القلانس يــرفعونها عن الرأس ويجــعلونها تحت الإبط للتحية وإظهار الاحترام.

ويلوح أن علاقة ملك البلغار بشعبه كــانت علاقة أبوية وديمقراطية؛ فقد دون ابن فضلان أن «كل من زرع شــيئًا أخذه لنفســه، ليس للملك فيه حق؛ غير أنهم يؤدون إليه من كل بيت جلد ثور. وإذا أمر سرية بالغارة على بعض البلدان كان له معهم حصة... وكلهم يلبسون القلانس فإذا ركب الملك ركب وحده بغــير غلام ولا أحد مــعه. فإذا اجــتاز في السوق لم يبق أحــد إلا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه وجعلها تحت أبطه، فإذا جاوزهم ردوا قلانسهم فوق رؤوسهم؛ وكــذلك كل من يدخل على الملك من صغيــر وكبيــر حتى أولاده وإخوته، ساعة يقــع نظرهم عليه، يأخذون فلانسهم فيــجعلونها تحت آباطهم ثم يومئون إليه برؤوسهم ويجلســون ثم يقومون حتى يأمرهم بالجلوس؛ وكل

من جلس بين يديه يجلس باركـا ولا يلبس قلنسوته ولا يظهرها حـتى يخرج من بين يديه فيلبسها عند ذلك.

والظاهر أن السِمَن كـان محبـوبًا عند البلغار؛ وقد كـان ملكهم بدينًا. ورأى ابن فضلان عندهم تفـاحا «أخضر شديدة الحموضـة جدًا تأكله الجوارى فيـسمن» ومما أتعب ابن فضـلان في مهمتـه الدينية أن الرجال والنسـاء كانوا ينزلون النهر فيغتـسلون جميعًا عراة لا يستتر بعضـهم من بعض. وقد اجتهد في منع ذلك فلم يوفق؛ وكان مـركز المرأة بينهم عاليًـا، وكانت الملكو تجلس إلى جانب الملك في المناسبات الرسمية.

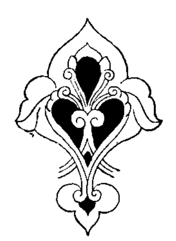
وطبيعي أن هذا الرحالة عرض في رسالته لطول الليل شتاءً وطول النهار صيـفًا وتـعذر تحديـد ساعـات الصلاة فكتب في هذا الصـدد: «ودخلت أنا وخياط كان للملك من أهل بغداد قبتى لنتحدث؛ فتحدثنا بمقدار نصف ساعة ونحن ننتظر أذان العشاء؛ فإذا بالأذان، فخـرجنا من القبة، وقد طلع الفجر. فقلت للمؤذن أي شيء أذنت؟ قال الفجر. قلت فعـشاء الأخيرة. قال نصليها مع المغرب. قلت فـالليل؟ قال كما ترى، وقـد كان أقصر من هذا وقـد آخذ الآن في الطول. . .إلخ» ونقـل ابن فـضلان عن مـلك البلغـار «أن وراء بلده بمسيرة ثلاثة أشهر قومًا يقال لهم ويسو؛ الليل عندهم أقل من ساعة».

والغريب أن ابن فضلان لم يكتب في رسالته شيئًا عن نتائج هذه الرحلة من الوجهتين السيـاسية والحربية؛ فلسنا ندرى هل ساعـد المسلمون البلغار في تشييد الحصون المطلوبـة أم لا. وأكبر الظن أن ملك البلغار كان يريد بناء تلك الحصـون ليحتمى فـيها من ملك الخـزر بوجه خاص. وكـان ملوك الخزر من أصل يشبه البلغـار وكانت مملكتهم عند مصب نهر الفـولجا ولكنهم كانوا من أتباع الديانة اليهودية وكانوا يعدون ملوك البلغار تبعًا لهم. وعلى كل حال فإن

رحلة ابن فضلان من أقدم مـا وصل إلينا عن بلاد الروسيا. بل إننا لا نعرف عن رسالة سـبقوه في هـذه الجولة ما خـلا أوتير Ohther النرويجى الذى زار الإقليم الواقع شمالي الروسيا حـول البحر الأبيض الروسى؛ وذلك قبل رحلة ابن فضلان إلى بلاد البلغار بنحو ستين سنة.

وقد وصف ابن فـضلان بعض قدماء الـروس الذين شاهدهم في مكان على نهر الفلـجا حين قدموا لـلتجارة مع البلغـار. وكتب المستـشرق الروسى فلاديمير مينورسكى V. Minorsky في هذا الصدد أن ابـن فضلان كـان دقيق الملاحظة فوصف حفلة دفن زعيم روسى وصفًا مفصلا دقيقًا حتى لقد استطاع أحد رسامى الروسى منذ خـمسين عامًا أن يرسم، اعـتمادًا على هذا الوصف صـورة لهذا المشـهـد الرهيب تزين الآن أحـد جدران المتـحف التـاريخي في موسكو.

وقد زار بلاد البلغـار بعد ابن فضـلان رحالة وعلماء مـسلمون؛ ولكن معظمـهم لم يدوّن عنها شـيئًا كـثيرًا. ومنهم عـبد الله أبو حـامد الأندلسي الغرناطى صاحب كتاب «تحفة الألبـاب ونخبة الإعجاب» وقد زار بلاد البلغار سنة ٥٣٠هـ (١١٣٥م) وصحب قاضـيها يعقوب بن النعـمان؛ وذكر أن هذا القاضى ألف كتـابًا في تاريخ البلغار؛ ولكنا لا نعرف عن هذا الكتاب شـيئًا. على أبا حامد الأندلـسي نفسه لم يكنب عن رحلته إلا بعض قـصص ضئيلة الشأن نشرها المستشرق دورن[1] B. Dorn.



(١) راجع Melanges Asiatiques, t. VI (Saint-Petersbourg 1869)



أبو دُلَّف

هو أبو دلف الخزرجى الينبوعى مسعر بن مهلهل. كان شاعرًا وأديبًا ورحالة؛ اتصل بالأمير السامانى بن أحمد. وأوفده هذا الأمير إلى الصين حول سنة ٣٣١هـ (٩٤٢م) مع بعثة كان أحد الأمراء الصينيين قد أرسلها إلى البلاط السامانى ليخطب ابنة أمير بخارى. وقد زار أبو دلف بلاد الهند، وآخر نقطة كانت تصل إليها السفن الإسلامية.

ولسنا نعرف عنه شيئًا كثيرًا ما عدا اتصاله بالصاحب إسماعيل بن عباد وزير بنى بويه. وهو الذى قدم إليه أبو دلف قصيدة طويلة في حيل بنى ساسان وأساليب حياتهم. والمعروف أن اسم «بنى ساسان» أطلق على قوم من العيارين المستهترين والشطار المحتالين، كانوا يطوفون الأقاليم، ويتفننون في اختراع الحيل للحصول على المال (راجع مادة ساسان في دائرة المعارف الإسلامية وما ذكر فيها من مراجع).

وفي بعض أبيات هذه القصيدة الطويلة إشارة إلى الرحلات والأسفار الطويلة. ومن ذلك الأبيات الآتية منقولة من كتاب «يتيمة الدهر» للثعالبى:

ومن كـــان من الأحـــرا ر يـسلـو سلـوة الحـــــر

ولا ســيـمــا في الغــربة أودى أكـــثـــر الـعـــمـــر

وشـــاهـدت أعـــاجـــينا وألـــوانًـــا مـن الـــدهـــر

فطـابت بالـنوى نفـــسي على الإمـــســـاك والـفطر

علـى أنى من الـقـــوم الـ ـبـــهـــاليـل بنى الغـــر

فـنحـن الـنـاس كل الـنـا س في البـر وفـي البـحـر

أخـــذنـا جـــزية الخـلق من الصـين إلى مـصـــر

إلى طـنجـــة، بل فـي كـ ـل أرض خـــيلـنا تســرى

إذا ضــــاق بـنـا قطـر نـزل عـنـه إلـى قـطـر

لنا الـدنيـا بما فـيـهـا من الإســلام والـكفـــر

فـنصـطـاف علـى الـثلـج ونشــتـو بلـد التـمـــر

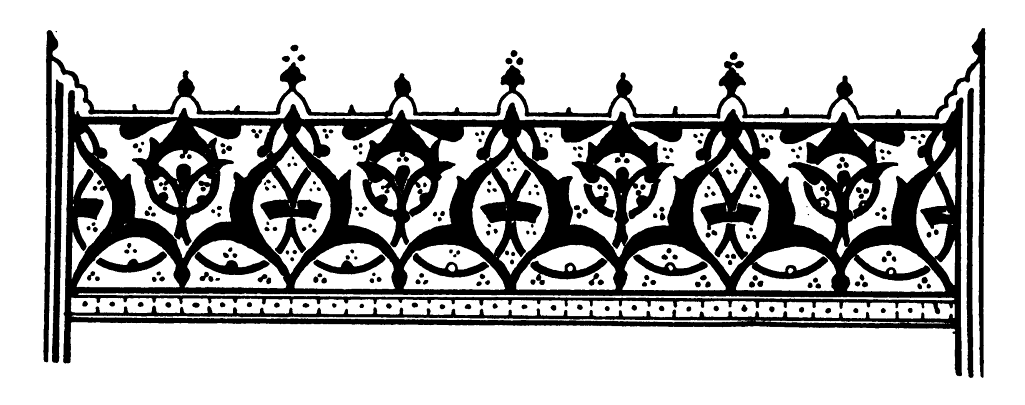
وقد حـفظ لنا القزوينى ويـاقوت وابن النديم مقـتطفات يظن أنـها من وصف أبى دلف لرحلتـه في الصين والهند[١]. وهو وصف يشـهـد - على إيجازه - بأن هذا الأديب الرحالة كان دقيق المـلاحظة. وحسبنا مثلا أنه فطن إلى أن الخزف الصينى كان يقلد في بعض البلاد الأخرى، ولا سيما في إيران وملبار، ولكن الأوانى الصـينية كانت تفضل في الأسـواق على كل ما يصنع تقلـيدًا لـها. وقد انتـشـر هذا الوصـف سـنة ١٨٤٥ ومعـه ترجمـة لاتينية بعناية المستشرق فون شلوزر Kurd von Schloezer ثم ترجمه المسـتشرق فراند

(١) راجع مادة مسعر بن مهلهل في دائرة المعارف الإسلامية.

Ferrand في مجموعــة الرحلات والنصوص الجغرافيــة التى نشرها عن الشرق الأقصى وخصه ماركارت M.J. Marquart بدراسة وافية في مجموعة المقالات التى كتبت ذكــرى وتكريمًا للمستشــرق ساخاو (Festschrift Sachau). وفضلا عن ذلك فإن المستــشرق وستنفلد F. Wustenfeld كان قد كــتب في منتصف القرن الماضى مقالا فــي مجلة علم تقويم البلدان المقارن درس فيه مــا كتبه أبو دلف عن القبائل التركية[١].



(١) راجع F. Wustenfeld: Des Abu Dolef Misar Berichr uber die turkischen Horden (Zeitschr. Fur vwrgl. Erdkunde, I, Magdburg 1842).



جغرافيو القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة (٩-١٠م)

بدأ المسلمون في الـقرن الثالث الهـجري (التاسع الميـلادي) يؤلفون في تقويم البلدان، ويصفون أجزاء إمبراطوريـتهم وما يجاورها من الأقاليم وامتاز الجغرافيون في القـرن الرابع الهجري بأن معظمهم كانوا رحالة، جمـعوا كثيراً مما كتبوه بوساطة المشاهدة والاختبار والأسفار.

***

فاليعقوبى توفى في نهاية القـرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، بعد أن قام برحلات طويلة في أمينية وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب. وقد أفاد من هذه الرحلات فـيما كتبـه في التاريخ والجغـرافيا. وذكر ذلك في مـقدمة «كتـاب البلدان». قال: «إنى عنيت في عنـفوان شبـابى، وعند احتـيال سنى وحده ذهنى، بعلم أخـبار البلدان والمسافة ما بين كل بلـد وبلد لأنى سافرت حديـث السن، واتصلت أسفـارى ودام تغربى». والواقع أن قـاريء «كتـاب

البلدان» يشعر بـأنه كتاب مثالى، لعـمال الحكومة المعينين في مـختلف أنحاء الدولة الواسعة الأرجـاء، ولغيرهم من التجار والرحـالة الذين يحرصون على أن يعرفـوا شيئًـا عن البلاد التى يزمـعون الرحيل إليـها؛ كمـا يقف منه على أوصاف وأخبار تدل على أن اليعقوبي رأى بنفسه معظم ما عرض للكتابة فيه، مع أنه تحاشى ذكر ما لقيه في أسفاره من المشاهدات والتجارب.

* * *

أمـا الاصطخرى فـعـاش في النصف الأول من القـرن الرابع الهجـري (العاشر الميـلادى). واعتمد في تصنف مـؤلفيه: «كتاب الأقـاليم» و«المسالك والممالك» على رحلاته لطـلب العلم والمعرفة في الآفاق الإسلامـية وعلى ما نقله من كـتاب «صور الأقـاليم» لأبي زيد البلخى. وقد وضـح الاصطخرى كتابه الأول بالخرائط.

* * *

وعاش المسعـودى في النصف الأول من القرن الرابع الهجـري (العاشر الميلادى). وقد نشـأ في بغداد، ثم أقبل على السياحـة لطلب العلم. وجمع الحقـائق الجغرافيـة والتاريخية. فطاف فـي إيران، ثم رحل إلى الهند وجزيرة سرنديب، ثم رافق جماعة من التـجار في رحلة إلى بحار الصين، وجال بعد ذلك في المحيط الهندي وزار زنزبار وسـواحل إفريقية الشرقـية والسودان، ثم قام برحلات في إقليم بحر قزوين وآسيا الصغرى والشام والعراق وبلاد العرب الجنوبيـة ومصـر. والظاهر أن أشق رحلاته كـانت في المحيط الهندي شـرقي إفريقية؛ فقد كتب: «وقد ركـبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والقلزم واليمن، وأصابنى فيها من الأهوال مـا لا أحصيه كثرة، فلم أشاهد أهول من بحر الزنج وفيه السمك المعروف بالأوال، طول السمكة نحو من أربعمائة ذراع

بالذراع العمرية، وهي ذراع ذلك البحر. والأغلب من هذا السمك طوله مائة ذراع. وربما بدا بهذا البحر فيظهر طرفًا من جناحيه فيكون كالقلاع العظيم وهو الشراع. وربما يظهر رأسه وينفخ الصعداء بالماء فيذهب الماء في الجو أكثر من ممر السهم. والمراكب تفزع منه بالليل والنهار وتضرب له بالدبادب والخشب لينفر من ذلك...».

وقد تحدث المسعودى عما لقيه من التجارب والمشاهدات خلال رحلاته في مؤلفات تاريخية ضخمة ضاع أكثرها بسبب ضخامة حجمها وقلة انتشارها. أما أعظم ما وصل إلينا منها فكتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» الذى اختصر فيه كتابين كبيرين له. وقد فرغ من تصنيفه سنة ٣٣٦هـ (٩٤٧م). والكتاب يجمع بين التاريخ والجغرافيا والسياسة والعمران؛ بل يتضمن معظم ضروب العلم في عصره. ويمتاز على غيره من الكتب العربية بكثرة ما فيه من أخبار الأمم التى كانت تحيط بالعالم الإسلامي في العصور الوسطى، وبندرة بعض هذه الأخبار في كتب سائر المؤلفين. من ذلك عناية المسعودى ببيان الطرق البرية للسفر إلى بلاد الصين، على حين أن الطرق البحرية إلى تلك البلاد هي التى عنى بها سائر من كتبوا في ذلك أيضا عنايته بالتعليل لبعض الظواهر الاجتماعية والاقتصادية، مثل قوله إن العاج كان يجلب في كثرة من شرقى إفريقية إلى الصين، وإن إقبال الصينيين على استيراده هو الذى جعله نادرًا وغالى الثمن في الأقطار الإسلامية. ولكن كتابة المسعودى لم تخل من العيوب المعهودة في تأليف معظم الجغرافيين والمؤرخين أيام العصور الوسطى؛ ومن تلك العيوب الاستطراد، ونقل الخرافات والأخبار السطحية بدون تمحيصها بالنقد العلمى أو بالرجوع إلى المصادر الأولى، ذلك فضلا عن إغفال منهج معين في الدراسة.

وقد أشار المسعودى في مقدمة «مروج الذهب» إلى أسفاره الطويلة فقال: «على إنا نعتذر من تقصير إن كان، ونتنصل من إغفال أو عرض لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار وقطع القفار، وتارة على متن خواطرنا وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار وقطع القفار، وتارة على متن البحر وتارة على ظهر البر، مستعلمين بدائع الأمم بالمشاهدة عارفين خواص الأمم بالمعاينة، كقطعنا بلاد السند والزنج والصنف والصين والرانج، فتارة بأقصى خراسان وتارة بوسائط أرمينية وأذربيجان والهوات والطالقان، وطوراً بالشام؛ فسيرى في الآفاق سرى الشمس في الإشراق كما قال بعضهم:

تيمم أقطار البلاد فتارة

لدى شرقها الأقصى وطوراً إلى الغرب

سرى الشمس لا ينفك تفذفه النوى

إلى أفق ناء يقصر بالركب

كذلك كتب في تلك المقدمة: «ولكل إقليم عجائب يقتصر على علمها أهله. وليس من لزم جهة وطنه، وقنع بما نمى إليه من الأخبار عن إقليمه، كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه».

والحق أن أوجه الشبه كثيرة بين المسعودى وهيرودوت. وحسبنا أن ابن خلكان وصف المسعودي بأنه كان إماماً للمؤرخين، وأن هيرودوت انعقدت له مثل هذه الإمامة، حتى سمى أبا التاريخ.

* * *

ومن الجغرافيين في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي. وقد ظل يتجول في البلاد الإسلامية نحو ثلاثين سنة. ولقى البغدادى. وقد ظل يتجول في البلاد الإسلامية نحو ثلاثين سنة. ولقى الاصطخرى، فطلب منه هذا أن يراجع كتابه «المسالك والممالك» ففعل، ولكنه ما لبث أن أخرج كتابًا بنفس الاسم، اعتمد فيه على ما كتبه اصطخرى في كتابه. ولسنا نعرف شيئًا كثيرًا عن سيرة حياته عدا إنه غادر بغداد سنة ٣٣١هـ (٩٤٣م)، طلبًا لدراسة البلاد والشعوب، ورغبة في الارتزاق من باب التجارة. فطاف في العالم الإسلامي من شرقية إلى غربية ويبدو أنه شاهد كل ما كتب عنه وعاينه، ما خلا الصحراء الكبرى، فإنه لم يشاهد إلا جزءًا منها. وقد كتب في هذا المعنى: «وأعانني على تأليفه تواصل السفر وانزعاجي عن وطنى إلى أن سلكت وجه الأرض بأجمعه في طولها وقطعت وتر الشمس على ظهرها»: وقد وصف ابن حوقل بلرم عاصمة صقلية وصفًا عظيم الشأن جليل القيمة لأنه ليس أقدم وصف إسلامي لهذه المدينة فحسب بل لأنه يشير إلى أسلوب ساذج اتبعه المسلمون حينئذ في تقدير سكان المدن ومبلغ عمارها في تلك العصور التى لم تعرف فيها الإحصائيات الرسمية. ومما كتبه في وصفها:

«وببلرم طائفة من القصابين والجرارين والأساكفة. وبها للقصابين دون المائتي حانوت لبيع اللحم. والقليل منهم في المدينة برأس السماط. ويجاوزهم القطانون والحلاجون والحذاؤون وبها غير سوق صالح. ويدل على قدرهم وعددهم صفة مسجد جامعهم ببلرم. وذلك أنى حزرت المجتمع فيه إذا غص بأهله بلغ سبعة آلاف رجل ونيفا لأنه لا يقوم فيه أكثر من ستة وثلاثين صفا للصلاة وكل صف منها يزيد على مائتي رجل».

وقد عجب ابن حوقل لكثرة المساجد في صقلية. وسأل عن ذلك، فأخبر «أن القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه لا يشاركه فيه غير أهله وغاشيته». وكذلك لاحظ كثرة المعلمين فيها وأن جنونهم المعلمين في كل بلد «وإنما توافرت عدتهم مع قلة منفعتهم لفرارهم من الغزو ورغبتهم عن الجهاد»؛ وذلك لأن المعلمين في صقلية كانوا يعفون من الجهاد والقتال. والحق أن ابن حوقل كان قاسيا على أهل صقلية وعلى طائفة المعلمين بوجه خاص. فهو يزعم - سامحه الله - »أن المعلم أحمق محكوم عليه بالنقص والجهل والخفة وقلة العقل». ونراه ينتقص أهل صقلية لاحترامهم المعلمين فيقول: «ومن أعظم الرزية وأشد البلية أن جميع أهل صقلية، لصغر أحلامهم، ونقص درايتهم، وبعد أفهامهم، يعتقدون أن هذه الطائفة أعيانهم ولبابهم وفقهاؤهم ومحصلوهم وأرباب فتاويهم».

واتصل ابن حوقل بالفاطميين. وقد ذهب المستشرق الهولندي دووزي Dozy إلى أن هذا الرحالة كان يتجسس ويعمل لحساب الفاطميين في الأندلس؛ فإنهم كانوا في البداءة يتطلعون إلى الاستيلاء على تلك البلاد؛ ولعلهم كانوا سيسعون إلى جمع المعلومات عنها. وقد أشار دوزي إلى ما كتبه ابن حوقل في هذا الصدد: «ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده، مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس نعمها ولذاتها... وليس لجيوشهم حلاوة في العين؛ لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها. وإن شجعت أنفسهم ومرنوا بالقتال، فإن أكثر حروبهم فتصرف على الكيد والحيلة. وما رأيت ولا رأى غيري بها إنسانا قط جرى على فرس فاره أو برذون هجين ورجلاه في الركابين».

ويذكرنا هذا بما كان للرحالة الفرسي قولني Volney من شأن في فكرة استيلاء الفرنسيين على مصر، مع أنه لم ينصح لحكومته الإقدام على ذلك[1]. فقد نشر هذا الرحالة كتابا عن أسفاره في مصر سنة ١٧٨٧، فقضى على الأساطير السائدة عن قوة المماليك ومناعتهم، وأشار إلى جهلهم طرق الحرب الحديثة، وإلى سهولة فتح مصر وخلو الإسكندرية من الحصون.

***

ومن أعظم الجغرافيين في القرن الرابع الهجري (١٠م) المقدسي، أبو عبد الله، المعروف بالبشاري. وقد طاف في الأقاليم الإسلامية، وقال عن نفسه إنه لم يظهر كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» حتى بلغ الأربعين. وأطنب في ذكر تجاربه قائلا: «فقد تفقهت وتأدبت وتزهدت وتعدت.. وخطبت على المنابر، وأذنت على المنائر، وأممت في المساجد، وأكلت مع الصوفية الهرائس، ومع الخانقائيين الثرائد، ومع النواتي العصائد... وسحت في البراري، وتهت في الصحاري... وملكت العبيد، وحملت على رأسي بالزنبيل، وأشرفت مرارا على الغرق، وقطع على قوافلنا الطرق.. وسجنت في الحبوس. وأخذت على أنى جاسوس، ومشيت في السمائم والثلوج» ويلوح لنا أن المقدسي كان يعمد في رحلاته إلى التنكير وتغيير اسمه والدخول في الطوائف المختلفة لدراسة بيئاتها.

والحق أن المقدسي يكاد يزعج القارئ بإسرافه في وصف مزايا كتابه وذكر ما عاني في سبيل تأليفه. مثل قوله: «وما تم لي جمعه إلا بعد جولاتي في البلدان، ودخولي أقاليم الإسلام، ولقائي العلماء، وخدمتي الملوك،

---

(١) Shafik Ghorbal: The Beginnigs of The Egyptian Question The Rise of Mehemet Ali p4.

ومجالستي القضاة، ودرسي على الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقراء وكتبة الحديث، ومخالطة الزهاد والمتوفين، وحضور مجالس القصاص والمذكورين، مع لزوم التجارة في كل بلد، والمعاشرة مع كل أحد والتفطن في هذه السباب بفهم قوي حتى عرفتها، ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها، ودوراني على التخوم حتى حررتها، وتنقلي إلى الأجناد حتى عرفتها. . . إلخ».

والظاهر أن المقدسي كان يعتمد على الرحلة والمشاهدة في جل كتاباته، وأن هذا هو الذي منعه من التعرض لوصف الأقاليم التي يسكنها غير المسلمين والتي لم يتجه إليها. ولعل ذلك أيضا مما جعله ينتقص كتاب أبي زيد البخل فيرميه بأنه «لم يدوخ البلدان ولا وطئ الأعمال».

وكان المقدس بوجه عام دقيق الملاحظة، باحثا ناقدا، يتحرى تمحيص ما نقل. وكان يعنى بالأخبار الطريفة والعادات الشاذة. من ذلك ذكره أن جامع بغداد «كانت على أبوابه مياضئ بالكرى». وقد بحثنا طويلا فلم نوفق إلى العثور على أمثلة تاريخية أخرى لمراحيض يدفع القوم أجرا لاستعمالها، كما نرى في هذه الأيام. ومنه أيضا تلخيصه الكلام على عدن بأنها «دهليز الصين وفرضة اليمن وخزانة المغرب ومعدن التجارات».

ومن الجغرافيين الذين كتبوا في القرن الرابع الهجري، وبذلوا الفوائد بفضل رحلاتهم الطويلة، محمد التاريخي الأندلسي المتوفى سنة ٣٦٣هـ (٩٧٣م). ألف كتابا في وصف أفريقية والمغرب. وكان هذا الكتاب من أكبر المراجع التي اعتمدها البكرى في كتابه «المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب».

* * *

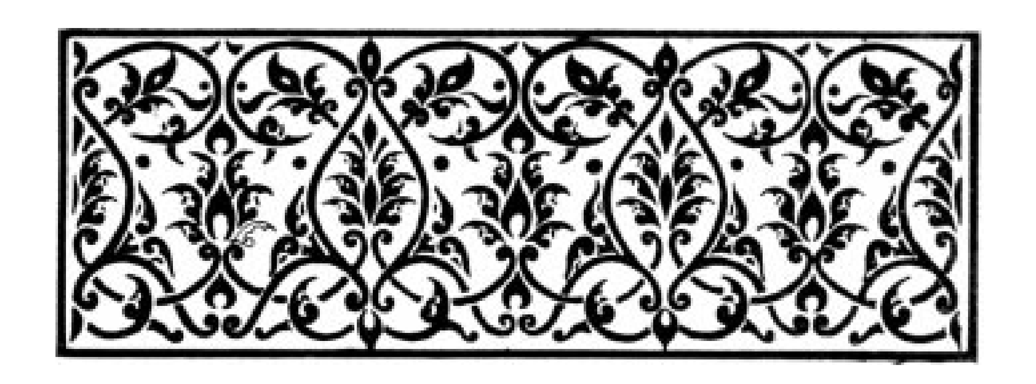
ومن العلماء المصريين الذين برزوا في عصر الدولة الفاطمية الحسن بن محمد المهلبي. وقد كان معاصرا للخليفة العزيز بالله. ويبدو أنه قام برحلة طويلة في بلاد السودان، وألف للعزيز سنة ٣٧٥هـ (٩٨٥م) كتابا في الطرق والمسالك، امتاز بأنه أول كتاب عني بوصف إقليم السودان وصفا دقيقا؛ ولكنه لم يصل إلينا.

* * *

ويظهر أن السفر من العالم الإسلامي إلى الشرق الأقصى في القرن الرابع الهجري لم يكن وقفا على المسلمين فقط. فقد جاء في «الفهرست» لابن النديم أن هذا المؤلف كان يستقي أخبار الصين حول سنة ٣٧٧هـ (٩٨٧م) من راهب نجراني، بعثه رئيس طائفته إلى تلك البلاد ومعه خمسة من القساوسة المسيحيين لرعاية النصارى الموجودين فيها؛ فأقاموا ست سنين ثم عاد الراهب وزميل له؛ وأخبرا عن هلاك النصارى في الصين وخراب كنيستهم.

* * *

وقد ظهر في الأندلس في القرن الخامس الهجري (١١م) علم من أعلام الجغرافيين المسلمين. هو عبد الله بن عبد العزيز البكري، صاحب «كتاب المسالك والممالك» غير أن هذا المؤلف لم يدون في هذا الكتاب الكبير نتائج أسفاره ورحلاته وإنما اعتمد على ما جمعه من الآثار العلمية التي خلفها من سبقوه.



قصة الفتية المغررين

اتجهت بعض الأبحـاث العلمية الحـديثة إلى القول بأن المسلمين عـرفوا أمريكا أن يكشفها كولومـبس. وأشار أصحاب هذه النظرية إلى وجود كلمات عربية في لغة هنود أمريكا، وإلى أن كولومـبس وجد في رحلته الثالثة زنوجًا وذهبًا إفريقيًا في جزائر الهند الشرقية، وأن مدينة بعض الجماعات الوطنية في أمريكا تشبه المدينة الإسلامية إلى حد كبير(١).

ولسنا نعـرض هنا لبـحث هذه النظـرية، ولكنا لا نشك في أن العـرب اتخـذوا الأسـاطيل في المحـيط الأطلسـى الدفـاع عن ملكهـم في المغـرب والأندلس. وطبيعي أنهم عرفوا شيئًا عن سواحل هذا المحيط وعن الجزائر غير البعيدة عنها. ولكن في بعض المصادر التاريخية العربية ما يشهد بأنهم حاولوا النفوذ إليه والتوغل فيه.

ومن ذلك حديث فـتية من مـدينة لشبـونة حول القرن الرابع الهـجري (العاشر المـيلادي)، قاموا في المحيط برحـلة جريئة، وعادوا منهـا بعد تجارب

(١) راجع مقال «عرف العرب أميركة قبل أن يعرفها أبناء الغرب» للأب أنستاس مارى الكرملى (عدد ٢ مجلد ١٠٦؛ فبراير سنة ١٩٤٥ من مجلة المقتطف).

قاسية وأهوال شـديدة. ولم يصلنا من أخبار هذه الرحلة إلا ما كتـبه الشريف الإدريسى في كتابه «نزهة المشـتاق في اختراق الآفاق». وقد علق علـيه الأمير شكيب أرسلان في كتابه «الحلل السندسية»، والأستاذ عبد الحميد العبادى في مقـال عن قصة أولـئك الفتيـة المغررين (أو المغربـين؟) قال الإدريسى: «ومن مدينة لشـبونة كان خروج المغـررين في ركوب بحر الظلمات لـيعرفوا مـا فيه وإلى أين انتهاؤه. . . ولهم بمدينة لشبونة بموضع من قرب الحمة درب منسوب إليهم يعـرف بدرب المغررين إلى آخـر الأبد. وذلك أنهم اجتـمعوا، ثمـانية رجال كلهم أبناء عم، فأنشـأوا مركبًا حمالا وأدخلوا فـيه من الماء والزاد وما يكفيهم لأشهر. ثم دخلوا البحـر في أول طاروس الريح الشرقية (أي هبوبها) فجـروا بها نحـواً من أحد عـشر يومًا. فـوصلوا إلى بحر غلـيظ الموج كدر الروائح كثيـر التروش (أي الصخور التى لا يكاد يسـترها الماء) قليل الضوء؛ فأيقنوا بالتلف، فردوا قـلاعهم في اليد الأخرى، وجروا في البحـر في ناحية الجنوب اثنى عشـر يومًا، فخرجـوا إلى جزيرة الغنم، وفيهـا من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحـصيل، وهي سارحة لا راعى لـها ولا ناظر إليها. فـقصدوا الجزيرة فنزلوا بها فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برى، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها، فـوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحـد على أكلها، فأخذوا من تلك الغنم فـذبحوها، فـوجدوا لحومـها مـرة لا يقدر أحد علـى أكلها، فأخـذوا من جلودها وساروا مع الجنوب اثنى عشـر يومًا، إلى أن لاحت لهم جزيرة، فنظروا فيها إلى عـمارة وحرث فقصدوا إليها ليروا ما فـيها. فما كان غير بعيـد حتى أحيط بهم في زوارق هناك، فأخذوا وحملـوا في مركبهم إلى مدينة على ضـفة البحـر فأنزلوا بها في دار، فـرأوا بها رجالا شقـرًا، زعروا شعور رؤوسهم، شعورهم سبطة وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب.

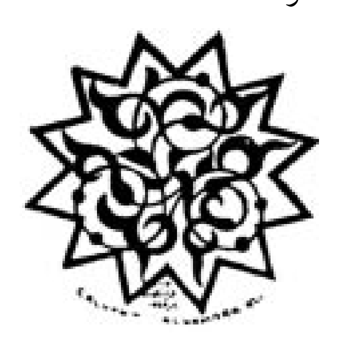
فاعتقلوا فيها في بيت ثلاثة أيام. ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي. فسألهم عن حالهم، وفيم جاءوا، وأين بلدهم. فأخبروه بكل خبرهم، فوعدهم خيرًا، وأعلمهم أنه ترجمان الملك: فلما كان في اليوم الثاني من ذلك اليوم أحضروا بين يدى الملك. فسألهم عما سألهم الترجمان عنه فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب ويقفوا على نهايته. فلما علم الملك ذلك ضحك، وقال للترجمان خبر القوم أن أبي أمر قومًا من عبيدة بركوب هذا البحر، وأنهم جروا في عرضه شهرًا، إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدى. ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيرًا وأن يحسن ظنهم بالملك ففعل. ثم صرفوا إلى موضع حبسهم إلى أن بدا جرى الريح الغربية فعمر بهم زورق، وعصبت أعينهم، وجرى بهم في البحر برهة من الدهر. قال القوم: قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها، حتى جئ بنا إلى البر، فأخرجنا وكتفنا إلى خلف، وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار وطلعت الشمس ونحن في ضنك وسوء حال من شدة الكتاف، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحنا بأجمعنا؛ فأقبل القوم إلينا فوجدونا بتلك الحال السيئة، فحلوا من وثاقنا وسألونا فأخبرناهم بخبرنا، وكانوا برابر، فقال لنا أحدهم: أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم؟ فقلنا. لا؛ فقال: إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين. فقال زعيم القوم: وا أسفى!. فسمى المكان إلى اليوم »أسفى« وهو المرسى الذى في أقصى المغرب».

وعلى كل حال فإن هؤلاء الفتية استطاعوا العودة إلى لشبونة، كما يؤخذ من سياق الكلام في الإدريسى، وحدثوا أهلها بأخبار رحلتهم؛ ولكن مواطنيهم لم يروا فيهم إلا شبابًا مخاطرين مغررين (أو مغربين، من الاتجاه إلى المغرب؟) حتى عرف الدرب الذى كانوا يسكنونه بهذا الاسم.

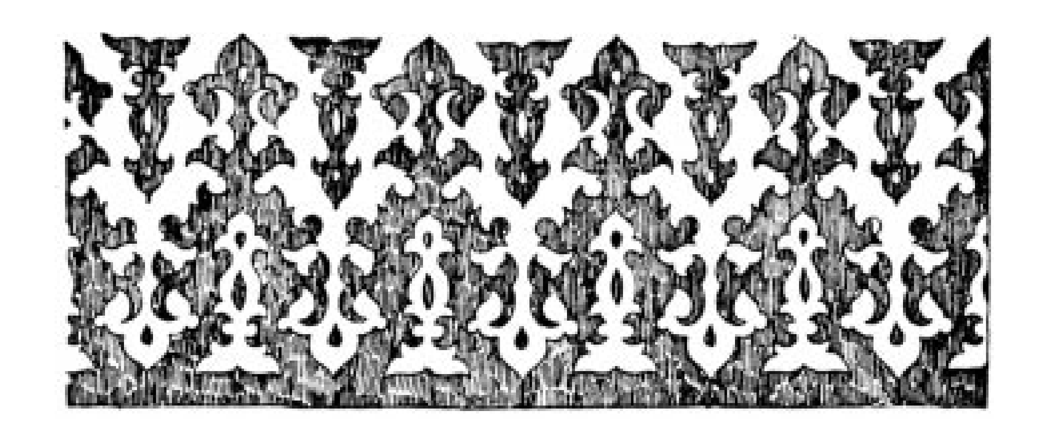
وإن تكن معالم هذه القصة صادقة، فإننا لا نستطيع أن نتتبع سير هؤلاء الفتيــة لنتبين الجزر التى وطئتها أقــدامهم في هذه الرحلة؛ ولكننا نرجح أنهم وصلوا أولا إلى مقربــة من إحدى جزائر أزور Azores التى تبعــد عن غربى البرتغال نحو ١٣٧٠ كيلوا مــترًا والواقعة بين خط ٣٧ وخط ٤٠ من العرض الشــمالى وبين خط ٢٥ وخط ٣٢ من الطول الــغربي. والظاهر أنهــا لم تكن مجهولة عند الفينيقيين والقرطاجنيين والنورمنديين والعرب، وإن نسب كشفها في القرن الخامس عشر الميــلادي إلى الفلمنكيين في رواية وإلى البرتغاليين في قول آخر. ولما انحدر الفتية إلى الجنوب وساروا اثنى عشر يوما فالمحتمل أنهم وصلوا إلى جزر مــاديرا. وقد نقل الأستــاذ عبد الحــميد العــبادي عن بعض العلماء الأوروبيين أن بهذه الجزيرة كثيرًا من المعز تقتات بنوع من العشب، هو السبب في مرارة لحومها. أما الجزيرة التى انتهى إليها المغرورون وقبض عليهم فيها، فلعلها إحدى جزر الخالدات أو كنارى، التى تبعد عن الساحل الشمالى الغربي لإفريقية بنحو مائة كــيلو متر والواقعة بين خطى ٢٧ و٢٩ من العرض الشمالى وبين خط ١٣ وخط ١٨ من الطول الغربى. والراجح أن هذه الجزائر كانت معروفة عند الفينيقيين ثم العرب وذلك قبل أن يكشفها الأوروبيون ثانية في القرن الرابع عشر الميلادي.

ولعل هذه القــصة لم تــكن مجــهولة في العــصــور الوسطى؛ بل لعل كولومبس كــان يعرفها، ويعرف قــصصًا أخرى من أخبــار من حاولوا ركوب المحيط الأطلسى وكشف غوامضه، ومن روايات بعض البحارة في السفن التى كانت تسيــرها بعض البيوت التجــارية إلى ساحل أفريقيــة الغربي وإلى بعض جزر المحيــط الأطلسي، لجلب الذهب والعاج والأحجار الكريمة وغــير ذلك. وكانت تلك البــيوت التجــارية تخفى أعــمالها اســتئثارا بــالكسب، واحتكارا للتجارة مع تلك الأصقاع.

وأكبر الظن أن هذه القصة أساس رحلة تنسب إلى راهب إيرلندى اسمه القـديس براندان. توفى سنة ٥٧٨م؛ ولكن حـديث رحلتـه لم يظهـر إلا في القرن الحادي عـشر الميلادي. والأرجح أنه خرافة، قـامت على بعض عناصر من قصة الفتية المغررين، وعلى عناصر أخرى من الأخبار العجيبة المعروفة في أسفار السنـدباد البحري[١]، فضلا عن قـصص أخرى في الأدب الكلتى عن رحلات وهمية إلى ما وراء البحار، وقـد اشتهر هذا الراهب بإنشاء عدة أديرة في إيرلندة. ويزعـمون أنه أراد أن يبلغ الجنة التى جـعلها الـله مأوى لعـباده الصالحين. أو أنه أراد أن يجـد مكانًا قصيًـا يعتزل فيـه الحياة الدنيـا، فركب سفـينة ومعه سـبعـة عشر من زمـلائه الرهبان يقـصدون إحدى جـزر المحيط الأطلسى. ولعلهم وصلوا إلى جزيرة من جزر الخالدات؛ ولكتهم لم يستقروا بها بل عادوا إلى إيرلندة. وقص براندان ما شـاهد من العجائب والغرائب في قصيدة طويلة يظن النقاد أنها ترجع إلى القرن الحادي عشر أو الثاني عشر بعد الميـلاد. وقد ظل القـوم يعـتقـدون بوجود جـزيرة يطلقـون عليهـا اسم هذا القديس، ويظنونها غربي جزائر الخالدات؛ بل كـانوا يرسلون البعثات لكشفها حتى بداءة القرن الثامن عشر.



(١) راجع J. De Goeje: La legende de saint Brandan (tiree des actes du 8e Congres international des Orientalistes, teun en 1889 a Stock-hollm et a Christiania, Leyde. 1890)



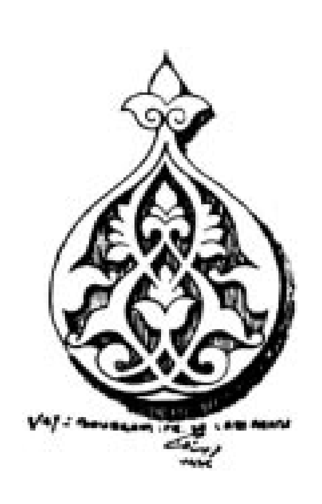
محمد بن قو سلطان مالى

ومن قصص الرحلات الإسـلامية المجهولة حـديث سلطان مسلم ركب المحيط الأطلسى لكشف غوامضه؛ وقد جـاء ذكره في كتاب «صبح الأعشى» للقلقـشندى المتـوفى سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م) عند الكلام على مملكة مـالى في السودان الغربي جنوبي بلاد المغرب.

وبيان ذلك أن الملك منسـا موسى بن أبى بكر ملك مالى مـر بمصر في طريقة إلى الحج في عـصر الناصر محمـد بن قلاوون سنة ٧٢٤هـ (١٣٢٤م) فأوفد السلطان الناصر أحد كبار موظفى القـصر لاستقباله. واحتفى به الأمراء المصريون[١]، واستفـسروا منه عن أمور كثـيرة في بلاده ولا سيما اسـتخراج الذهب والنحاس. كما سأله أحدهم عن سـبب انتقال الملك إليه، فأجاب بأن ابن عمـه السلطان السابق محـمد بن قو كـان يظن أن «البحر المحـيط له غاية تدرك» فجهـز مئات من السفـن وشحنها بالرجال والمؤن التى تكفـيهم سنين،

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ج٦ ص٢٠٠-٢٠١.

وأمـرهم أن يسيـروا في المحـيط وألا يرجـعوا حـتى يبلغـوا نهـايته أو تنفـذ أزوادهم. فغابت السفن مدة طويلة ثم عادت منها سفينة واحد. ومثل قائدها بين يدى السلطان، فسأله عن أمر زملائه؛ فـقال إن السفن سارت زمانًا طويلا وحتى عرض لها في وسط اللجة وادٍ له جرية عظيمة» فابتلع المراكب فلم ينج إلا هذا القائد بسفينته. وقد كانت آخر السفن؛ ولكن السلطان لم يصدق هذا الحديث؛ أو لعله أراد أن يتبين نصـيبه من الصحة، فأعد ألفى سـفينة للرجال وألفًا للأزواد؛ واستخلف ابن عمه منسا موسى في حكم البلاد؛ وأقلع بنفسه على رأس حملته الاستكشافية العظيمة. فكان ذلك آخر العهد به وبمن معه.

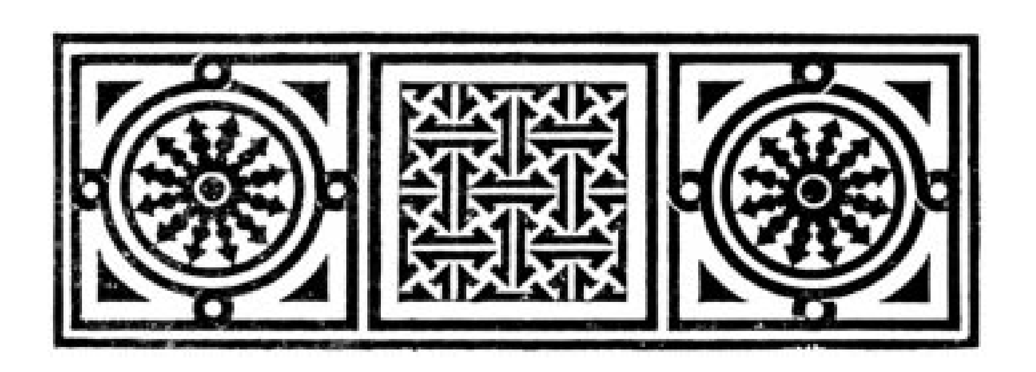




البيرونى

من العلماء المسلمين الذين كان للرحلات أكبر الفضل في علمهم أبو الريحان البيرونى المتوفى سنة ٤٤٠هـ (١٠٤٨م). وقد امتاز بالاطلاع الواسع، وروح النقد العلمى الدقيق، والعمق في التفكير؛ فحار قصب السبق في الفلسفة والفلك والعلوم الرياضية والتاريخ وعلوم اللغة وتقويم البلدان. وامتدت شهرته في العصور الوسطى إلى أوروبا.

ولد البيرونى ونشأ في إقليم خوارزم. ثم أتيح له بعد ذلك أن يصحب السلطان محمود الغزنوى في فتوحاته بالهند. وقام برحلات طويلة في تلك البلاد، وتعلم لغاتها، وضبط مواقع مدنها، وأصلح بعض البيانات الجغرافية الخاطئة، التى كانت مدونة عنها، وأفاد مما جمعه خلال أسفاره في تأليف كتابه «تاريخ الهند»؛ ولا سيما أنه كان يقبل على البحث والتنقيب وكان إسلامه لا يمنعه من الإخلاص في الحكم على غير المسلمين. والحق أن كل ما كتبه عن الهند يشهد بسعة إطلاعه وكثرة تجاربه ودقة ملاحظاته، وبأنه جال طويلا في تلك البلاد، فعرف آفاقها وخبر أهلها ودرس عاداتهم ومظاهر حضارتهم.



ناصر خسرو

ولد ناصر سنة ٣٩٤هـ (١٠٠٣م) في بلدة من أعمال بلغ وتأدب أحسن تأدب. وقام في شبابه بأسفار عديدة في أنحاء إيران وتركستان والهند وبلاد العرب ثم استقر في منصب كبير في ديوان السلاجقة بمدينة مرو. وظل يعيش ترف وبطالة حتى سنة ٤٣٧هـ (١٠٤٥م)؛ فنراه يضحى بمنصبه ويبدأ حياة جد وسفر وعلم وتقوى. وهو يذكر في كتاباته أن السبب في هذا التحول رؤيا ظهر له فيها شيخ طلب إليه أن يكف عن شرب الخمر وعن حياة اللهو والمجون. فسافر لتأدية فريضة الحج وقام برحلات طويلة في الشرق الأدنى بين عامى ٤٣٧ و ٤٤٤هـ (١٠٤٥-١٠٥٢).

ولما عاد إلى وطنه كان قد ترك مذهبه السنى، وأصبح من أشد دعاة الإسماعيلية والمتعصبين للفاطميين. ولا عجب فإنه غادر إيران في وقت انتشرت فيه الاضطرابات واشتد النزاع بين أمراء الأقاليم المختلفة؛ ورأى نفس البؤس في البلاد التى زارها ما خلا مصر، فقد وجد فيها رخاء عظيمًا وأسواقًا عامرة وتحفًا فنية نادرة وهدوءًا شاملاً. وظن ناصر خسرو أن الفضل في رخاء وادى النيل إنما يرجع إلى الدولة الفاطمية ومذهبها الإسماعيلي،

وأن هذا المذهب كفيل بإنقاذ العالم الإسلامي؛ فلم يلبث ناصر أن اتصل ببعض رؤساء الشيعة الإسماعيلية في مصر. والظاهر أن الخليفة المستنصر بالله أحسن استقباله وكلفه بأن يدعو لمذهب الإسماعيلية في خراسان. ولكن السلاجقة لاحظوا خطر هذا الدعوة فاضطهدوا ناصر خسرو، واضطروه إلى الفرار إلى بلاد ما وراء النهر، حيث توفى سنة ٤٥٣هـ (١٠٦١).

وخلف هذا الرحالة وصفًا دقيقًا لرحلته يحمل على القول بأنه كان يدون مشاهداته أولا فأولا وأنه كان يعنى بالاتصال بالشعوب التى يمر بها، ويتفهم مظاهر الحضارة التى يشاهدها. وحسبنا أن نشير هنا إلى وصفه مدينة القاهرة، وكلامه عن حضارة مصر في عصر الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، وعنايته بدراسة الأعياد والحفلات والصناعات والفنون والأسواق، وإلى وصفه الحرم الشريف بالقدس.

وقد ترجمت رحلة ناصر خسرو إلى الفرنسية. وأصبحت مصدرًا أساسيًا في دراسة الحضارة الإسلامية في الشرق الإسلامي في القرن الخامس الهجري والحق أو وصف مصر في رحلة ناصر خسرو يعد من أكثر المصادر التاريخية إمتاعًا وأعظمها شأنا في بيان حال البلاد قبل القحط أو «الشدة العظمى» التى حلت بها في نهاية عصر الخليفة المستنصر[١].

ولا عجب فإن هذا الرحالة لم يكن سائحًا عابرًا؛ بل أقام في مصر نحو أربع سنوات ودون مشاهداته بدقة وإسهاب، فوصف الحياة العقلية وتحدث عن الأزهر ودار الحكمة وجامع عمرو وعن العلماء والفقهاء ودعاة الفاطميين.

(١) راجع كتابنا «كنوز الفاطميين» ص١٠-١٦.

واستطاع أن يدرس الحياة الاجتماعية عن كثب. فذكر مثلا أنه لم يعرف بلدا يستمتع بمثل ما ظفرت بـه مصر من الأمن والهدوء، وأن الصناع والعمال فيها يمنحون أجوراً مرضيـة فيقبلون على العمل بسرور وانشراح، على عكس ما في الأقطار الأخـرى من السخـرة وما إلى ذلك؛ كمـا أن مرتبات القـضاة كانت كبيرة جدًا، ليتم الاطمـئنان إلى عدالتهم وبعدهم عن المؤثرات المختلفة ولتقل حاجتهم إلى الناس.

ولاحظ ناصر أن التجار في مصر كانوا يـبيعون بأثمان محددة وإذا ثبت على أحدهم الغش فـإنه يركب جملا ويوضع في يده جـرس يدقه ويطاف به في البلد ويرغم على أن يـصيح بأعلى صـوته: «لقـد غشـشت وها أنا ألقى عقـابى. جزى الله الكاذبين!». وكـتب كذلك أن البقـالين والعطارين وبائعى «الخردة» كانوا يأخـذون على عاتقهم إعطاء الزجاج والأواني الخـزفية والورق لوضع ما يبيـعونه فيها؛ فلم يكن على المشـترى أن يبحث عما يجعل فـيه ما يقتنيه.

ومما ذكره أن ركوب الخيل كان وقفًا على الجند والمتصلين بالجيش، على حين كان سـائر الأهلين ينتقلون على حـمير ذات سـروج جمـيلة. وكان في الفسطاط والقاهرة نحو خـمسين ألف حمار للتأجير؛ يشاهد المـرء عددًا كبيراً منها عند مداخل الشوارع والأسواق.

وأطنب ناصر خـسرو في التـدليل على ثروة البلاد ورخـائها؛ ووصف مدينة القاهرة وصـفًا شائقًا، وقدر أنها في ذلك الوقت (فـيما بين سنتى ٤٤٩ و٤٤١ هجرية أى ١٠٤٧ و ١٠٥٠م) كانت قد نمت عمارتها، وأصبح فيها ما لا يقل عن عشرين ألف دكان، كلها ملك للخليفة. وكـثير منها يؤجر بعشرة دنانير في الشهر؛ وليس بينها إلا القلـيل تبلغ أجرته في الشهر دينارين. وكان

في القاهرة من الخانات والحمامات عدد وافـر جدًا وكلها ملك للخليفة أيضًا. والقصر الملكى وسط المـدينة، بينه وبين الأبنية المحيطة به فضـاء يفصله عنها. وأسواره عالية فلا يستطيع أحد رؤيته من داخل المدينة، وهو يبدو من خارجها كالجـبل. ولم يكن بالقـاهرة سور محـصن؛ ولكن أبنيـتها كـانت أعلى من الأسـوار المحـصنة وفي كل منهـا خـمس طبـقـات أوست؛ فكأنهـا القـلاع الضخمة. وكانت البيوت مبنية بناء نظيفًـا محكمًا وكانت مفصولا بعضها عن بعض بحدائق ترويها مياه الآبار.

وانتـقل ناصـر خسـرو بعـد ذلك إلى وصف مـدينة الفـسطاط جنوبى القاهرة، حـيث كانت الحركـة التجارية والصنـاعية فأسـهب في الكلام على عظمتها وبيوتها الشاهقة وجوامعـها الكبيرة وحدائقها الغناء وصناعتها الزاهرة ووصف الثروة في أسواقها والازدحام فـيها؛ وقال إن الحوانيت مملوءة بالسلع المختلفة والأقمشة الثمينة والذهب وسائر الحلى، حتى أن المشترى لا يجد فيها محلاً يجلس فيه.

وذكر هذا الرحـالة في مواضع عديدة من حديث رحلتـه قصصا تـشهد بالتـسامح الديني الذى عـرف عن العصـر الفـاطمي، وباطمئنان المسـيحـيين واليهود إلى عدل الخليـفة وحكومته. ومن ذلك قصة تاجر مـسيحى كان من أغنى الأثرياء في مصر؛ فلا يستطيع أحـد أن يحصى أرزاقه وأملاكه وماله من السفن. وقـد دعاه الوزير ذات يوم وأخـبره أن الخليفـة أقلقه وأهمـه ما حل بالشعب من الضيق بسبب قلة المحصول ذلك العام، ثم سأله عن مقدار القمح الذى يمكنه أن يبيعـه أو يقرضه، فأجاب التاجـر بأن عنده من القمح ما يكفى مدينة مصر (الفسطاط) ست سنوات. وقـد أعجب ناصر خسرو بما عرف عن الخليفة والحكومة من العـدل الذى يسمح لمثل ذلك الرجل أن يمتلك مثل هذه

الثروة وأن يصدق القول بشـأنها بدون أن يخشى مصادرتها أو ضـياع حقه في جزء منها.

وامتـاز ناصر خسـرو بما عرف عن الإيرانيين من الذوق الفني الجـميل؛ حتى أصبـحت ملاحظاته وآراؤه عن الآثار والفنون في رحلته مرجعًـا أساسيًا للمشـتغلين بالفنون الإسلاميـة. فنراه يتحدث عن مراكـز الصناعات والفنون المختلفة، ويصف المساجد، والقصور والخـانات وغير ذلك من مفاخر العمارة الإسلامـية. وتحـدث ناصر عن مـدينة تنيس، وأعجب بما كـان ينسج في أي مكان آخر قصب يوازيه في الجودة والجمال، وبقماش الأبوقلمون، الذى يتغير لونه باختلاف سـاعات النهار، ويصدره المصـريون إلى بلاد الشرق والغرب. كما أعجب بالكتان الذى كان بنسج في أسيوط ويبدو للعين كأنه الحرير.

وأشار إلى صناعة الخزف في العصر الـفاطمي؛ فقال إن المصريين كانوا يصنعون أنواع الخزف المختلفـة، وإن الخزف المصرى كان رقيقا وشـفافا، حتى لقد كان ميسوراً أن ترى من باطن الأناء الخـزفى اليد الموضوعة خلفه. وكانت تصنع بمصر الفناجين والقـدور وسائر الأواني، وتزين بألوان مختلفـة تختلف باختلاف أوضاع الآنية.

وكان ناصر خسرو شديد الإعجاب بسوق القناديل - بجوار جامع عمرو - فقال إنه لم يعرف مثله في أي بلد آخـر، وإن التحف النادرة والثمينة كانت تحمل إليه من أصقاع العالم كله. وترجع هذه التسمية إلى أن سكان هذا الحي كـان لكل منهم قـنديل على باب مـسكنه. والطريـف أن مـا وصل إلينا من التحف الفنية الفـاطمية يؤيد تمامًا ما كـتبه ناصر خسـرو في هذا الميدان. وقد فصلنا الكلام على ذلك في كتابنا «كنوز الفاطميين».

ولا ريب في أن هذا الرحالة أتيح له أن يدرس مصر دراسـة طيبة خلال

رحلته فيــها، وإن كان من المحتمل أن تعــصمه الشديد للمــذهب الفاطمى قد يكون من أسباب إفراطــه في الإعجاب بثروة البلاد ورخائها وأمنــها والتسامح الدينى فيها وازدهار فنونها وعدالة النظم الاجتماعية فيها.

والحق أن ناصر خســرو لم يكن شديد الاهتمام بالنظم الاجتمـاعية في مصر فحسب؛ بل نراه يعـرض لما يصادفه من هذه النظم في سائر البلاد التى تجول فيها. مثال ذلك ما كتبه عن إقليم الأحساء في بلاد العرب. فقد أعجب بنظام الحكومة القرمطية فيه. وذكر أنه إذا أعـسر أحد السكان فيه أقرضوه مالا يستـعين به على تدبير أمـوره، وأن الذى يستـدين شيئًـا لا يطالب بدفع ربح عنه، وأن الغـريب الذى يحسن إحـدى الحـرف يقرض عند وصـوله إلى هذا الإقليم مـبلغًـا من المال يسـتعين بـه على شراء عـدده. وإذا تهـدمت دار أو مطحنة، وعجـز صاحبـها عن إصلاحـها، فإن حكام الإقليم يـنيطون ببعض عبـيدهم إتمام هذا الإصـلاح من غير أجـر. وللحكومة في الإحـساء مطاحن تنفق عليها ويطحن الناس فيها قمحهم بالمجان. وقد سجل ناصر إعجابه بهذه النظم التى تذكرنا الآن ببعـض الاتجاهات الاشتراكية في العـصور القديمة وفي العصر الحديث.

* * *

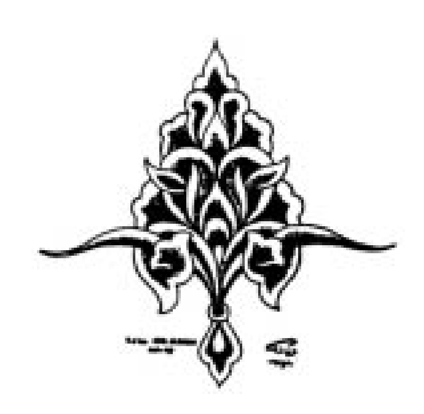
ودون ناصر في أخبار رحلته أن السـفر في بعض أجزاء بلاد العرب لم يكن ميسـوراً إلا إذا استأجر المسافـر حارسًا من أبناء القبيـلة التى يمر بأرضها ليدله على الطريق ويحميه من اعتداء قطاع الطرق.

ومن طريف ما ذكره ناصر عن البـيع والشراء في أسواق البصرة أن هذه المدينة كانت تقـوم في أنحائها ثلاثة أسواق في اليـوم الواحد، وأن رواد تلك الأسواق كانوا يودعـون أموالهم عند أصحاب المصارف المـالية ويأخذون منهم

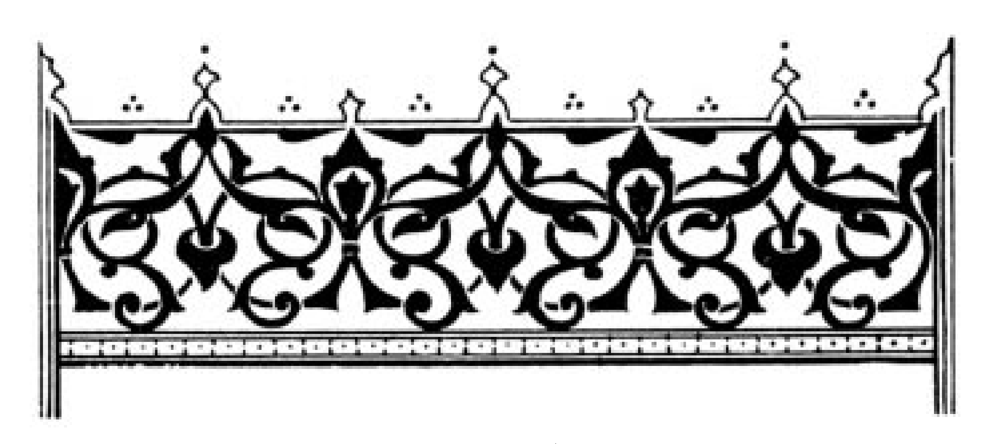
إقرارًا باستلامها ثم يدفعون قيمة كل ما يشترونه «شيكا» أو «إذنا» يقبض البائع قيمته من صاحب المصرف. وهكذا لا يستعمل التجار النقود في معاملتهم وإنما يستخدمون «الشيكات أو أذنات الصرف» يدفع قيمتها أصحاب المصارف[1].

ولاحظ ناصر خسرو في مدينة طبس (بين نيسابور وإصفهان) أن المرأة لا تخاطب إلا زوجها أو قريبًا لها وأنه إذا ثبت أن رجلاً وامرأة لا قرابة بينهما قد دار بينهما حديث فإن جزاءهما القتل.

وصفوة القول أن رحلة ناصر خسرو في الشرق الأدنى تميط اللثام عن كثير من نظمه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي).



(١) انظر Nasiri - Khosrau: Sefer Nameh ص١٢٩.



الإدريسى

هو محمد بن محمد الشريف الإدريسى صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختـراق الآفاق». ولا ريب في أنه من أعلام الجـغرافيين المـسلمين الذين كان للرحـلات شـأن عظيم في آثـارهم العلمـيـة. ولد في سـبـتـة سنة ٤٩٣هـ (١١٠٠م). ودرس في جامعة قرطبة، ثم طاف فـي الأندلس وشمالى إفريقية وآسيا الصغرى. ويقال أيضـا إنه زار فرنسا وإنجلترا. ثم لبى دعوة الملك رجار الثاني Roger فنزل في بلاطه بصـقلية، حيث كان التأثر بالمدينة الإسـلامية لا يزال عظيما.

وكان رجار قـد أراد - جريًا على سنة كثير من الأمـراء الشرقيين - أن يؤلف له كـتاب شـامل في وصف مملكـته وسـائر الآفـاق المعروفـة في ذلك العهد، فجـمع ما كتب المؤلفون في هذا الميدان. ووقع اختـيار‌ه على الشريف الإدريسى ليصنف له كـتابًا في وصف الكرة الأرضية الفضـية التى صنعت له مرسومًا عليها جميع الأقاليم المعروفـة حينئذ. وطبيعي أن هذا الاختيار يشهد بما كـان للمسلمين من تفـوق في العلوم والفنون في ذلك العـصر. وقـد تم تأليف هذا الكتـاب المسـمى «نزهة المـشتـاق» قـبل وفـاة رجـار سنة ٥٤٨هـ

(١١٥٤م) وظل الكتاب ينسب إلى أمير البلاد فيقال «كتاب رجار» أو «الكتاب الرجاوى».

واستعان الإدريسى في كتابه مؤلفاته الجغرافية الواسعة بما أفاده من رحلاته الخاصة، وبما جمعه الرواد الذين أوفدهم الملك رجار إلى أقاليم المختلفة لاستطلاع أوصافها وتحقيق مواضعها، وبما قيده من أحاديث الرحالة والتجار والحجاج في السفن التى كانت تمر بموانئ صقلية، إلى جنب ما استطاع الحصول عليه من بيانات عن البلاد المسيحية بفضل رعاية الملك رجار المسيحى. والواقع أنه، بهذه البيانات امتاز على سائر الجغرافيين المسلمين فإن من سبقه منهم لم يستطع الكتابة على أوروبا في شيء من الدقة، ولم يظهر بمشاهدات أولئك الرواد الذين أوفدهم الملك حتى إلى أقصى الأطراف مثل اسكندناوة. أما الذين خلفوه فقد عمد معظمهم إلى نقل ما كتبه هو في هذا الصدد.

وطبيعي أيضا أن يمتاز كتاب الإدريسى بغرازة مادته في جغرافية المغرب وصقلية مما يشهد بأنه ساح في تلك الآفاق. أما فيما يخص الشرق فقد نقل كثيراً عمن سبقه من المؤرخين. ومع ذلك كله، فإن ما كتبه عن مصر والشام وفرنسا وإيطاليا وألمانيا والأراضى المطلة على البحر الأدرياتيك يشهد بأنه أفاد كثيراً من سياحاته الخاصة أو سياحات غيره من الرواد. وكتب الإدريسى كثيراً في الغوص عن اللؤلؤ فأحسن عرض هذا الموضوع وألم بأطرافه(١).

وأكبر الظن أن كتب الإدريسى وصلت إلى العلماء المسيحيين بصقلية في العصور الوسطى؛ ولكننا لا نظفر بدليل على ذلك؛ لأن أقدم ترجمة نعرفها

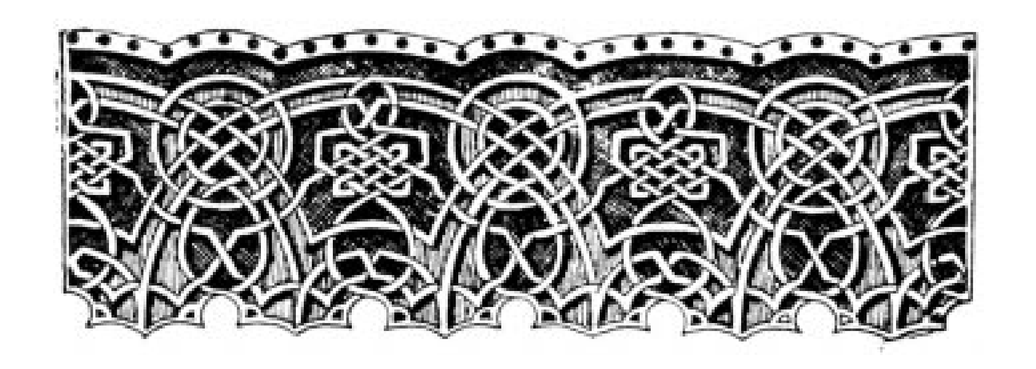
---

(١) راجع كتاب «حديث السندباد القديم» للدكتور حسين فوزى ص١٤٦.

لكتابه «نزهة المشتاق» كانت إلى اللاتينية في بداءة القرن السابع عشر الميلادي. والذى لا شك فيه أن الغربيين اعتمدوا هذا الكتاب في تقويم البلدان، ولا سيما بلاد الشرق، إلى أن تقدم علم الجغرافيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وحسبنا أن نشير إلى ما كتبه البارون دى سلان. (في عدد إبريل سنة ١٨٤١ من المجلة الآسيوية الفرنسية)؛ فقد قال: «إن كتاب الإدريسى لا يمكن أن يوازن به أي كتاب جغرافي سابق له وإن ثمت بعض أجزاء من المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ والجغرافي في الأمور المتصلة بها».

ولا شك في أن ما كتبه الإدريسى عن صقلية يشهد بالتسامح الديني الذى كان سائدا فيها برعاية الحكام النورمانديين الذين كانوا يحثون رعاياهم المسلمين على التمسك بأهداف دينهم والذين يقالإنهم كانوا لا يأذنون للمسلم أن يرتد عن الإسلام. ولا غرو في ذلك فقد كان هؤلاء الحكام شبه شرقيين في مظاهر حضارتهم المختلفة.

ومما يؤسف له أننا لا نعرف شيئًا كثيرًا عن سيرة الإدريسي. وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن مرجع هذا أن المؤلفين العرب كانوا يتجاهلون وجوده لإسرافه في مدح رجار، ولإنصافه المسيحيين في صقلية إلى أبعد حد، في وقت كان المسيحيون فيه يشنون على المسلمين الحروب الصليبية الشعواء، أو يعلمون على طردهم من الأندلس. ولكن هذا التعليل لا يقوم على أساس متين؛ لأن شكةانا في شأن ضياع سيرة الإدريسى تصلح أيضًا لسيرة كثير من سائر الجغرافيين المسلمين، الذين لم يتصلوا بالمسيحيين ولم يسرفوا في مدحهم.

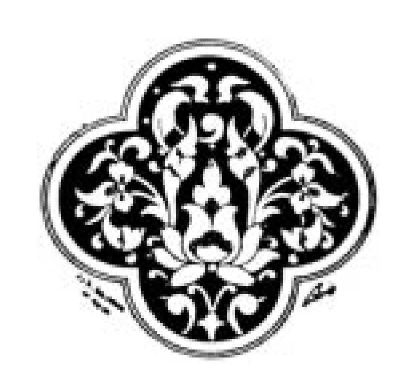


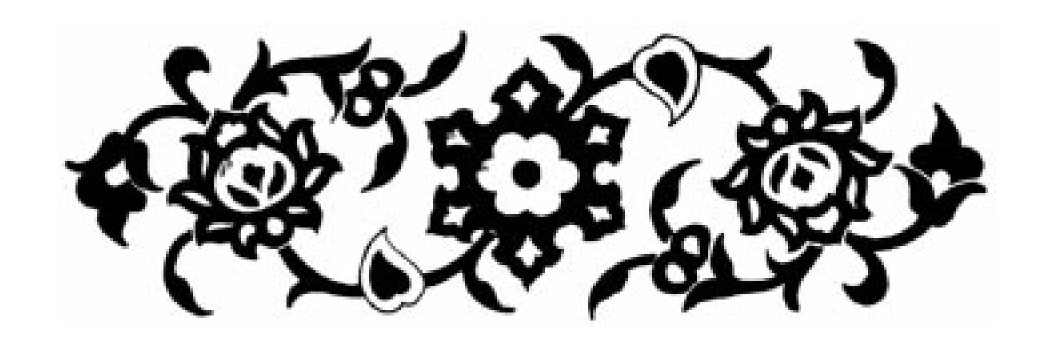
السمعانى

هو عبد الكريم بن أبـي بكر السمعانى من علماء مـدينة مرو. ولد سنة ٥٠٦هـ (١١١٢م) من بيت كريم انتهت إليه رئاسته. وقام برحلات طويلة في طلب العلم والحـديث؛ حتى قـيل إن عـدد شيـوخه زاد على أربعـة آلاف. والمعـروف أنه زار بلاد ما وراء النهـر Transoxiane وجـال في أقاليم الشـرق الإسلامي، ولا سيما إيران والعراق والشـام والحجاز، ولعله طاف في «غيرها من البلاد التى يطول ذكرها ويتعذر حـصرها»، على حد قول ابن خلكان في ترجمته.

ويتجلى علم السمعانى ببلاد الإسـلام في مؤلفه «كتاب الأنساب» الذى جمع فـيه بضعـة آلاف من التراجم مـرتبة على حروف المـعجم، ونسب كل واحد منهـا إلى بلد أو قبـيلة أو صناعة أو تجـارة أو غير ذلك؛ فكـان يضبط حروف النسبة ويشـرحها، وإذا كانت إلى بلد ذكر موقـعه ثم ترجم لصاحب الاسم. والحق أن مثل هذا المعـجم المطول من الأعمال العلمـية الجليلة، التى تتطلب الأسـفار الطويلة والاطلاع الواسع. وقـد لخص «كتـاب الأنساب» أو

أجمله عدد من المؤلفين. واختـصره السمعانى نفـسه في كتاب طبعـته مصوراً لجنة تذكار جب Gibb Memorial سنة ١٩١٢.





ابن جبير

كان كـثيـر من الحجـاج القادمين من الأندلـس يزورون المغرب ومـصر والشام في طريقهـم إلى الحجاز، ثم ينتهزون هذه الفـرصة للطواف في بعض الأقاليم الإسـلامية الأخرى. وأعظم أولئـك الحجاج شأنًا في القـرن السادس الهجـري (الثاني عشر الميـلادي) هو ابن جبيـر؛ فقد قام بثـلاث رحلات إلى الشرق ودون أخبار الرحلة الأولى في شبه مذكرات يومية تعرف باسم «تذكرة بالأخبار عن اتفـاقات الأسفار». ولعله كتبـها حول سنة ٥٨٢هـ (١١٨٦م). وقد قـام على نشرها المسـتشرق الإنجـليزي رايت W. Wright سنة ١٨٥٢ ثم ظهرت منها طبعة جديدة سنة ١٩٠٧ راجعها المستشرق الهولندى دى خويه.

ولد ابن جبير في مدينة بلنسية سنة ٥٤٠هـ (١١٤٥م). ودرس على أبيه وغيره من علماء العصر في سبتـة وغرناطة، ثم دخل في خدمة أبى سعيد بن عبد المؤمن صـاحب غرناطة. ومما جاء في ترجـمة ابن جبير عن كـتاب نفخ الطيب للمقـرى أن الأمير أبا سعـيد استدعاه يومًـا ليؤلف فيه كـتابًا وهو في مجلس شرابه وحدث أن دفع إليـه كأسًا من النبيذ، فاعتذر ابن جـبير بأنه ما شرب الخـمر قط، فقـال الأمير: والله لتـشربن منهـا سبعًـا؛ فلم يستطع إلا

الإذعان. وكافأة الأمير بأن قدم إليه القدح سبع مرات أخرى مملوءة بالدنانير وصب ذلك في حجره. وانصرف ابن جبير. وعقد العزم في الليلة نفسها على أن يذهب لتأدية فريضة الحج تكفيرًا عن ذنبه في شرب النبيذ. وأنفق تلك الدنانير في سبيل البر وباع عقارًا له تزود به.

***

بدأ ابن جبير رحلته إلى الأراضى الحجازية في شوال سنة ٥٧٨هـ (فبراير سنة ١١٨٣م) مع صديق اسمه أحمد بن حسان كان من رجال الطب والعلم والأدب. وعبر الصديقان البحر إلى مدينة سبتة Cauta حيث وجدا سفينة من سفن مدينة جنوة، تريد الإقلاع إلى الإسكندرية، فركباها يوم الخميس ٢٩ من شوال (٢٤ فبراير) وبدأ ابن جبير تقييد يومياته منذ اليوم التالي. ومما يشهد بأن العلاقات بين الأفراد المسيحيين والمسلمين كانت طيبة أن ابن جبير سره التوفيق لتلك السفينة وكتب أن الله «سهل عليه وعلى صديقه ركوبها».

أقلعت السفينة من ثغر سبتة الواقع على شاطئ مراكش في مواجهة جبل طارق. وسارت محاذية لشاطئ الأندلس حتى ثغر دانية جنوبي بلنسية. ثم اتجهت شرقا مارة بجزائر البليار. وكادت أنواء البحر وأمواجه أن تعبث بها، لولا مركبًا مسيحيًا آخر، كان قادمًا من قرطاجنة الإسبانية وميمها شطر صقلية، فاقتفت أثره. واستطاعت أخيرًا أن تصل مع ذلك المركب إلى برسردانية حيث جدد المسافرون الماء والحطب والزاد. وقيد ابن جبير أن مسافرًا مسلمًا ممن يعرفون اللسان الرومى هبط مع جماعة من الروم إلى أقرب المواضع المعمورة من المرسى الذى وصلت إليه السفينة فرأى نحو ثمانين من

أسرى المسلمين رجالا ونساء يباعون في السوق، وكان الروم قد عادوا بهم من غزوة في سواحل البحر ببلاد المسلمين.

أقلعت السفينة بعد ذلك إلى صقلية. ووصف ابن جبير ما مر بها من العواصف والأهوال إلى أن أرست على شاطئها عند موضع لم يحدده. ثم فارقته إلى ثغر الإسكندرية فوصلت إليه في ٢٩ من ذى القعدة أي بعد شهر من بدء رحلتها من مراكش.

وطبيعي أن أول ما شاهده ابن جبير في الإسكندرية إنما كان متصلا بما نسميه اليوم «إجراءات الجمرك». والحق أنه وصفها في دقة وطرافة، تحملنا على روايتها على لسانه، لنتبين أن كثيرًا من الأنظمة التى تبدو لنا اليوم من تمخضات مدنيتنا ليس في الحق إلا تطورًا طبيعيًا لما عرفه القوم في العصور الوسطى.

قال ابن جبير: «فمن أول ما شاهدنا فيها (أي في الإسكندرية) يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه؛ فاستحضر جميع من كانوا فيه من المسلمين واحدًا واحدًا، وكتبت أسماؤها وصفاتها وأسماء بلادهم وسئل كل منهم عما لديه من سلع أو ناض (نقد) ليؤدي زكاة ذلك كله، دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل. وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم فلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل هل حال عليه حول أم لا. واستنزل أحمد بن حسان منا، ليسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب؛ فطيف به مرقبًا على السلطان أولا. ثم على القاضى ثم على أهل الديوان ثم على جماعة من حاشية السلطان، وفي كل يستفهم ثم يقيد قوله فيخلى سبيله.

وأمر المسلمـون بتنزيل أسبـابهم وما فضل من أزودتـهم. وعلى ساحل البحر أعـوان يتوكلون بهم وبحمل جـميع ما أنزلوه إلى الديوان، فاسـتدعوا واحدًا واحدًا وأحضر ما لكل واحـد من الأسباب. والديوان قد غص بالزحام فوقع التفتيش لجميع الأسباب، ما دق منها وما جل. واختلط بعضها ببعض. وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثًـا عما عسى أن يكون فيهـا. ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غيرى ما وجـدوا لهم أم لا. وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدى وتكاثر الـزحام. ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزى عظيم... وهذه لا محالة من الأمـور الملبس فيها على السلطان الكبيـر المعروف بصلاح الدين. ولو علم بذلك، على مـا يؤثر عنه من العدل وإيثار الرفـق، لأزال ذلك وكفى الله المؤمنين تلك الخطة الشـاقة، واسـتؤدوا الزكاة على أجمل الوجوه. وما لقينا ببـلاد هذا الرجل ما يلم به قبيح لبعض الذكر سوى هذه الأحدوثة، التى هي من نتائج عمال الدواوين».

فقد آلم ابن جبيـر أن يساء إلى الحجاج المسلمين، وأن يطلب إليهم أداء الزكاة عن جميع ما معهم، بدون تفرقـة بين الذى حال الحول فاستحقت عليه الزكاة وما لم يحل عليه الحول فلا زكاة عليه، كـما آلمته القسوة في تفتيشهم. والظاهر أن هذه الدقة في «جمرك» الإسكندرية قديمة، فـقد ذكر الأستاذ نقولا زيادة في كـتابه «رواد الشـرق العربي»، الذى أخـرجتـه مجلة المقـتطف، أن السائح المسيحي برنارد الحكيم روى عن نفـسه (في القرن التاسع الميلادي) أنه فتش في الإسكندرية وحقق معه، ودفع ستة دنانير ذهبية.

وقد لقى ابن جبير مثل هذا التـفتيش بالإسكندرية في رحلته الثانية إلى مصر؛ فكتب قصيدة يمدح فيهـا السلطان صلاح الدين، ويشير إلى فتحه بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م)، وينصحه بإزالة هذه الأساليب التى تهتك فيها الحرمات وتنسى حقوق المسلمين، ومن أبيات هذه القصيدة:

يعنت حجاج بيت الإله	ويسطو بهم سطوة الجائر
ويكشف عما بأيديهم	وناهيك من موقف صاغر
وقد أوقفوا بعد ما كوشفوا	كأنهم في يد الآسر
ويلزمهم حلفا باطلا	وعقبى اليمين على الفاجر
وإن عرضت بينهم حرمة	فليس لها عنه من ساتر
وليس على حرم المسلمين	بتلك المشاهد من غائر
ألا ناصح مبلغ نصحه	إلى الملك الناصر الظافر
فما للمناكر من زاجر	سواك وبالعرف من آمر
وحاشاك إن لم تزل رسمها	فما لك في الناس من عامر

أما الطواف بأحمد بن حسان - زميل ابن جبير - على طائفة من الموظفين لسؤاله عن أنباء المغرب، فيذكرنا بما يحدث اليوم بين دول المتحاربة من استجواب القادمين إليها من أبناء بلاد الأعداء أو ممن مروا بتلك البلاد؛ ليمكن الإفادة مما قد يدلون به من أخبار. ومما يؤسف له أن ابن جبير لم يدرون شيئًا عما اتبع الثغر مع المسافرين من غير المسلمين.

عرض ابن جبير بعد ذلك لوصف الإسكندرية فذكر آثارها وعمائرها ومنارها وأعجب بما فيها من مدارس للغرباء «يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنًا يأوى إليه ومدرسًا يعلمه الفن الذى يريد تعليمه» كما أشار إلى المستشفى الذى شيده السلطان لأولئك الغرباء، وإلى الخيرات التى أوقفها للعناية بهم. ولاحظ كثرة المساجد إلى حد أن توجد منها الأربعة والخمسة في موضع واحد. وأتيح لابن جبير أن يشاهد في الإسكندرية دخول

الأسرى الصليبيين، الذين وقعوا في يد المسلمين في الحملة الصليبية الفاشلة، التى كان صاحب الكرك قد دبرها في البحر الأحمر للاستيلاء على المدن الإسلامية المقدسة. وقد أدخل الأسرى «راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق».

ثم انتقل ابن جبير إلى القاهرة ومصر - وهذا الاسم الأخير هو الذى كانت تعرف به حينئذ مدينة الفسطاط وضواحيها المتصلة بالقاهرة - ونزل بفندق أبي الثناء في زقاق القناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص. وأقام في عاصمة البلاد أياما؛ زار فيها مشهد الحسين والقرافة وضريح الإمام الشافعي، والمدرسة الناصرية التى شيدها بإزائه السلطان صلاح الدين، ولم تكن عمارتها قد تمت بعد. وأعجب ابن جبير بسعتها فكتب: «يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته. بإزائها الحمام إلى غير ذلك من مرافقها». وحرص على لقاء شيخها نجم الدين الخبوشاني، لأنه كان قد سمع في الأندلس بفصله وبركته. ثم شاهد مارستان القاهرة وبنيان القلعة والسور الذى كان صلاح الدين يريد أن يتخذه حول القاهرة والقطائع والعسكر والفسطاط فيجمع عواصم مصر الإسلامية كلها. وقد عثرت دار الآثار العربية في حفائرها على أطلال هذا السور.

كما شاهد القناطر التى شيدها السلطان عند بدء الصحراء الغربية «بعد رصيف ابتدئ به من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض تسير فيه مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة». وكانت القنطرة والطريق المرصوف معًا جزءًا مما أعده السلطان للدفاع عن البلاد من جانب الغرب. ولاحظ ابن جبير أن جميع المسخرين في العمائر والمنشآت المختلفة كانوا من أسرى الروم. ووصف أهرام الجيزة «وأبا الهول».

وأشار في حديثه عن القاهرة إلى فـضل السلطان صلاح الدين في محو المكوس، التى كانت مفروضة على الحجـاج في عصر الدولة الفاطمية، والتى كانت تجـبى يضطهدون ويعـذبون في سبـيل دفعهـا؛ وأما الذين لا يدفـعون الضريبـة في عيذاب، وتصل أسـماؤهم إلى جـدة «غير مـعلم عليها عـلامة الأداء» فكانوا يلقـون فيهـا أضعـاف هذا التنكيل. فأبطل صـلاح الدين هذه المكوس، وعوض أمراء مكة بما يرسله إليهم سنويًا من الطعام والمال.

* * *

ثم صعد ابن جبير في النيل إلى قوص. ووصف بعض المعابد في المدن التى توقفت عندها المركب، كـما شرح ما يلقـاه الحجاج والمسافـر من عسف العمال المكلفين جمع الزكاة، فقد كانوا يعـترضون المركب ويفتشون المسافرين ويفحصون الأمتعة بوساطة مسلة طويلة يتخللون بها الأكياس والحزم.

ودخل ابن جبـير قوص فكتب أنـها حافلة الأسـواق، متسـعة المرافق، كثـيرة الخلق لكثـرة الصادر والوارد من الحـجاج والتـجار المصريـين والمغاربة واليمنيين والـهنديين وتجار أرض الحبـشة. ثم سافـر منها إلى عـيذاب بطريق الصحراء الذى ذاعت شهرته في عـالم التجارة في العصور الوسطى. ووصف ابن جبير هذا الطريق وأشار إلى ضخامة تجارته في الفلفل وأنواع التوابل فقال «ورمنا في هذا الطريق إحـصاء القـوافل الواردة والصادرة فمـا تمكن لنا، ولا سيما القـوافل العيذابية المتحملة لسلـع الهند الواصلة إلى اليمن ثم من اليمن إلى عيذاب وأكثر ما شاهدنا من ذلك أحمال الفلفل فلقد خيل إلينا لكثرته أنه يوازى التراب قيمة. ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقى بقارعة الطريق أحمـال الفلفل والقرفة وسـائرها من السلع مطروحة لا حـارس لها، تترك بهـذا السبيل إمـا لإعياء الإبل الحـاملة لها، أو غيـر ذلك من الأعذار.

وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات، على كثرة المارة عليها من أطوار الناس.

وصل ابن جبير إلى عيذاب ولاحظ أنها من أعظم الثغور شأنًا «بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائدًا إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة». كما لاحظ أنها في صحراء لا نبات فيها ولا يؤكل فيها شيء إلا مجلوب؛ ولكن أهلها في نعمة بما يكسبونه من خدمة الحجاج ولا سيما من تأجير الجلاب - والواحدة جلبة - وهي المراكب التى تنقل الحجاج بين عيذاب وجدة. وقد وصفها ابن جبير وصفًا فريدًا؛ لأنها كانت غريبة لا يستعمل فيها مسمار البتة. وكان أهل عيذاب لا يحفلون براحة الحجاج؛ فكانوا «يشحنون الجلاب بهم، حتى يجلس بعضهم على بعض وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج» لكي يستطيع صاحب الجلبة منهم أن يستوفى ثمنها في رحلة واحدة. والواقع أن ابن جبير قدر أن الحلول بعيذاب منن أعظم المكاره التى حف بها السبيل إلى الحج، فقد كان ساخطًا على هوائها الذى «يذيب الأجسام» ومائها «الذى يشغل المعدة على اشتهاء الطعام» وسكانها «الذين لا خلاق لهم ولا جناح على لاعنهم». وأشار في هذه المناسبة إلى ما يزعمه الناس من أن سليمان بن داود كان اتخذها سجنًا للعفارتة. ونصح ابن جبير بتجنبها وباتخاذ طريق الشام. والحق أن هذا الطريق الأخير ومثله طريق العقبة، كان طريقًا طبيعيًا ولا سيما لحجاج المغرب والأندلس. ولكن وجود الصليبيين في الشام حمل معظم الحجاج على التحول إلى طريق عيذاب.

* * *

على أن الجزء الأساسي في رحلة ابن جبير إنما هو وصف مكة والمسجد الحرام ومناسك الحج وزيارة المدينة؛ فقد استغرق هذا كله أكثر من ثلث

الكتاب، ووفـق فيه الرحـالة لتدوين أخـبار وملاحظات ذات شـأن عظيم في دراسة التاريخ والآثار الإسلامية. ولا عجب فـقد أقام بمكة حول ستة شهور. وغضب ابن جبيـر لما شاهده من سوء معاملة الحجـاج، وإمعان أهل مكة في استغلالهم، لولا تدارك صلاح الدين بإرسـاله المال والطعام إلى مكثر الحسنى أمير مكة، فضلا عن منحه إقطاعات في صعـيد مصر واليمن. غير إن غياب صلاح الدين في حروبه مع الصليبيين في الشام كان يشجع مكثر الحسنى على التمادى في نهب الحجاج، حتى تمنى ابن جبير أن تطهر تلك الأراضى المقدسة بسيوف مولاه ملك الموحدين.

وكـان أمراء مكة يدينون بالطاعـة للخليـفة العـباسي ولصـلاح الدين؛ ولكنهم كانـوا ينعمون بقـسط وافر من الاسـتقلال، ما دام الخـليفة العـباسي ضعيـفا، وما دام صلاح الدين مشغـولا بقتال الصليبيين. وذكر ابن جـبير أن الخطيب في الحرم الشريف كان يدعو يوم الجمعـة للخليفة العباسي. ثم لأمير مكة ثم للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ولأخيه وولى عهده أبي بكر. «وعند ذكر صـلاح الدين بالدعاء تخفق الألسنة بالتـأمين عليه في كل مكان. وحق ذلك عليهم، لما يبـذله من جميل الاعتـناء بهم وحسن النظر لهم، ولما رفعـه من وظائف المكوس عنهم». وليس هذا هو الوضع الوحيـد الذى أشار فيه ابن جبير إلى صلاح الدين بأعظم الإعجاب والتقدير.

أكمل ابن جـبير حـجته؛ ولكنه لم يعـقد العزم عـلى العودة إلى وطنه مباشرة. ولم يكن ليفكر في الرجـوع من طريق عيذاب؛ فرافق ركب الحجاج العراقي، ومر بطـريق نجد قاصدا الكوفة؛ ودون أن هذه المدينـة «كبيرة عتـيقة البناء قد اسـتولى الخراب على أكـثرها، ومن أسبـاب خرابها قـبيلة خفـاجة المجاورة لهـا، فهي لا تزال تضـر بها». وعبـر الفرات عند مـدينة الحلة على

جسر جديد أمر الخليفة بتشييده لراحة الحجاج. وكان هذا الجسر معقودا على مراكب كبار متصلة من الشط إلى الشط، تحف بها من جانبها سلاسل من حديد «كأذراع المفتولة عظما وضخامة، ترتبط إلى خشب مثبتة في كلا الشطين تدل على عظم الاستطاعة والقدرة». واجتاز ابن جبير بظاهر مدينة الحلة جسرا آخر على نهر متشعب من الفرات يسمى «النيل».

* * *

وأخيرًا ألقى الرحالة عصا التسيار في بغداد. ووصف أحياءها المختلفة ومساجدها وأسواقها وحماماتها ومدارسها ومستشفياتها؛ ولكنه لم يجد العاصمة العباسية على حسب ما تخيل فكتب: «إن هذه المدينة العتيقة، وإن لم تزل حاضرة الخلاصة العباسية،... قد ذهب أكثر رسمها، ولم يبق منها إلا شهير اسمها... أما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء، ويذهب بنفسه عجبًا وكبرياء. يزدرون الغرباء، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء، ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء. قد تصور كل منهم في معتقده وخلده أو الوجود يصغر بالإضافة لبلده؛ فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادًا أو عبادًا سواهم... يظنون أن أسنى الفخار في سحب الإزار... يتبايعون بينهم بالذهب قرضًا؛ فلا نفقة فيها إلا من دينار تقرضه، وعلى يدى مخسر للميزان تعرضه، لا تكاد تظفر من خواص أهلها بالورع العفيف، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها إلا على من ثبت له الويل في سورة التطفيف. فالغريب منهم معدوم الإرفاق متضاعف الإنفاق، لا يجد من أهلها إلا من يعامله بنفاق، أو يهش إليه هشاشة انتفاع واسترفاق... فسوء معاشرة أبنائها يغلب على طبع هوائها ومائها... أستغفر الله إلا فقهاءهم المحدثين ووعاظهم المذكرين... لكنهم معهم يضربون في حديد بارد».

والحق أن ابن جبير كان قاسيًا على أهل بغداد قسوة تذكرنا بقسوة الطبيب ابن رضوان (القرن ٦هـ، ١٢م) على المصريين عامة، حين أسرف في وصفهم بالجبن والبخل وما إلى ذلك، حتى لاحظ أن كلابهم أقل جرأة وبهائمهم أشد ضعفًا من الكلاب والبهائم في سائر الأقاليم[١].

وعرض ابن جبير في وصف بغداد لقصور الخليفة وأسرته. وذكر أن بنى العباس كانوا وقتئذ متعلقين اعتقالا جميلا لا يخرجون ولا يظهرون ولهم المرتبات القائمة، ولم يكن للخليفة وزير؛ بل كان له موظف لشئونه الخاصة، يعرف بنائب الوزارة، وله فضلا عن ذلك قيم على الدولة كلها يعرف بالصاحب أستاذ الدار ويدعى له في الخطبة إثر الدعاء للخليفة.

* * *

وانتقل ابن جبير إلى الموصل مارًا بسر من رأى وتكريت وأعجب بما في الموصل من عمائر حربية ودينية ومستشفيات. ثم واصل الرحلة بين مدن الشام المختلفة فوصف آثارها، وتحدث عن عادات أهلها وعن عنايتهم بالغرباء. ودون «أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم، ويقولون: هؤلاء ممن انقطع إلى الله عز وجل فتجب مشاركتهم».

والحق أن ابن جبير نبه إلى ما كان من مودة وعلاقات تجارية بين أفراد المسلمين والمسيحيين، حتى في العهد الذى كانت الحروب الصليبية ناشبة فيه بين أمراء الفريقين، فقد كتب في رحلته: «ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربما يلتقى الجمعان ويقع المصاف

---

(١) راجع الفصل الذي كتبه الأستاذ فييت عن سكان مصر في كتاب:

Hautecoeur et G. Wiet: les MNosquees du Caire ج١ ص٦٦ - ٧١

(القـتال) بيـنهم، ورفاق المسـلمين والنصارى تـختلف بينـهم دون اعتـراض عليهم. شاهدنا في هذا الوقت الذى هو شهر جمادى الأولى من ذلك خروج صلاح الديـن بجميع عـسكر المسلمين لمنازلة حـصن الكرك، وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين القدس مسـيرة يوم أو أشق قليلا، وهو سرارة أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع مـتصل العمارة، يـذكر أنه ينتهى إلى أربعمـائة قرية، فنازله هذا السلطان وضيق عليـه وطال حصاره، واختلاف القـوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفـرنج غير منقطع، واختـلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك، وتجار النصارى أيضًا لا يمنـع أحد منهم ولا يعترض، وللنصارى على المسلمين ضريبـة يؤدونها في بلادهم. وهي من الأمنة على غـاية. وتجار النصـارى أيـضـا يؤدون في بلاد المسلمين عـلى سلعـهم، والاتفـاق بينهم والاعتدال في جـميع الأحوال، وأهل الحرب مشتـغلون بحربهم، والناس في عافيـة، والدنيا لمن غلب. هذه سيرة أهل هذه البلاد فـي حربهم، وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كـذلك، ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقـهم في جميع الأحوال سلمًا أو حـربًا، وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه».

ولاحظ ابن جبيـر أن الفلاحين المسلمين في الأرض التابعة للمسـيحيين كانوا في رخـاء، بينما كان إخـوانهم الفلاحون المسلـمون عند الملاك من بنى دينهم لا ينعمـون بمثل ذاك الرفق والعدل. قال ابن جبـير: «ورحلنا من تبنين سحر يوم الإثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منظمة، سكانها كلها مسلمون وهم مع الإفرنج على حـالة ترفيه... وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضـمهـا وجزية عـلى كل رأس دينار وخمـسة قـراريط، ولا

يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدون أيضا؛ ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالـهم متروكة لهم، وكل ما بأيدى الإفرنج من المدن بساحل الشـام على هذا السبيل، رساتيـقها كلها للمـسلمين وهي القرى والضيـاع، وقد أشربت الفتنة قلوب أكـثرهم، لما يبصرون عليـه إخوانهم من رساتيق المـسلمين وعمالـهم، لأنهم على ضد أحـوالهم من الترفـيه والرفق. وهذه من الفـجائع الطارئة على المسلمين أن يشـتكى الصنف الإسـلامي جور صنفـه المالك له، ويحمـد سيـرة ضـده وعدوه المالك له من الإفـرنج ويأنس بعدله».

لاحظ ابن جـبيـر أن الصليبـيين كانوا يفـرضون على المسلمين المغـاربة ضريبـة خاصة قـدرها دينار على كل شخص. ودوّن أن الـسبب في ذلك أن طائفة من المجاهدين المغاربة اشتـركت مع مسلمي الشرق الأدنى في فتح أحد الحصـون الصليبـية؛ وكـان لهم الفضل الأكـبر في هذا الميـدان. والظاهر أن الصليبـيين ضايقهم قدوم المغـاربة من بلادهم البعيـدة للمساهمة في قـتالهم، فجزوهم بهـذه الضريبة «وقال الإفرنج إن هؤلاء المغاربة كـانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهـم ولا نرزأهم شيئًـا، فلما تعرضـوا لحربنا وتألبـوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة علـيهم». ولكن الواقع أن اشتراك المغاربة في الحـروب الصليبية في الشـرق ليس غريبًا في شيء، ولا سـيما إذا تذكرنا أن بلاد المغرب والأندلس كانت في حروب صليبـية مع المسيحيين قبل أن تنشب الحروب الصليبية في الشرق الأدنى.

* * *

ووصل ابن جبيـر إلى عكا في العاشر من جمـادى الآخرة سنة ٥٨٠هـ ١٨ من سبـتمبـر ١١٨٤، ووصفها بأنهـا ملتقى تجار المـسلمين والنصارى من

جميع الآفاق. ولا عجب فقد كـانت حينئذ أهم ثغور الصليبيين. وعلم هناك أن مركبًا في ثغر صور عازم على الإبحار إلى بجاية بتونس. فذهب إلى صور ولكنه استصغـر المركب فقفل راجعًا إلى عكا بطريق البحر وركب فيـها سفينة جنوية كبـيرة من سفن الحجـاج المسيحيين والمسلمين كـان قصدها ثغر مـسينة بجزيرة صقلية. ودوّن ابن جبير أنها كانت كالمدينة الجامعة؛ فيها أكثر من ألفى مسـافر، ويباع فيـها كل ما يحتـاجه المسافـر، وأن المسلمين كانوا في المركب بمعـزل عن الإفـرنج. وأشار إلى أن عـددًا من المسـافـرين من المسلمين ومن البلغريين (تعـريب لكلمة Peregrini بمعنى حجـاج، في اللاتينية) هلكوا في السفينة فقذف بهم في البحر، وورثهم قائد المراكب لأن المتبع عندهم أنه يرث كل من يموت في البحر. واسـتغرقت الرحلة إلى مسينة حول شـهرين، وكان المقرر لها نحو أسبـوعين. والحق أنها كانت رحلة غنية بالأحداث والأخطار، تشهد بما كان يتعـرض له المسافرون في البحر حينئذ، وبما كـان يستلزمه قيادة السفن من مهارة ومـران وصبر. وقد أتيح لابن جبير في وصف عـبور البحر الأبيض المتوسط قادمًا وعائدًا، وفي وصف عبوره البحر الأحمر، أن يستعمل كثيـرًا من مصطلحات الملاحـة وبناء السفن في العصور الوسطى، فـحفظ لنا بذلك عددًا وافـرًا منها، ويمكن الإفادة منه في فـهم بعض الأخرى المدونة في ذلك العصر.

أرست السفينة أخيرًا عند مدينة مسينة في صـقلية، فوصفها ابن جبير؛ ولكنه وصف ملؤه المفارقـات المتناقضات فبـينما يقول إنه «لا يقر فيـها لمسلم قرار» وإنها «لا توجـد لغريب أنسًا» إذ به يضيف إلى ذلك «أن أسواقهـا نافقة حفيلة، وأرزاقهـا واسعة بأرغاد العيش كفـيلة، لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان وإن كنت غريب الوجه واليد واللسـان». ويلوح أن ابن جبير لم يكن قد

اطمأن بعد إلى حال المسلمين في صقلية، فإنه زار بعد ذلك بالرمة عاصمة البلاد، وزاد غيرها من مدن الجزيرة، ووصف عمرانها، وثقة حكامها المسيحيين برعاياها من المسلمين؛ وقد كان عددهم وافرًا في هذا الإقليم، الذى التقت فيه مختلف المدنيات الوثنية والمسيحية والإسلامية.

ولكنا لا نستطيع أن نركن إلى رحلة ابن جبير في الوقوف على حال المسلمين بصقلية، ومعرفة ما كانوا يتمتعون به من الحرية الدينية بعد أن زال سلطانهم عن هذه الجزيرة بقرن من الزمان. فآنًا نراه يدون ما يشهد بأن المسيحيين كانوا يحسنون معاملة المسلمين، ويستخدمونهم في الوظائف والمهن، حتى في أعظمها شأنًا ببلاط الأمير؛ وآنًا نراه يروى حديث رجل مسلم لقيه في مسينة، اسمه عبد المسيح، وقال له: «أنتم مدلون بإظهار الإسلام فائزون بما قصدتم له، رابحون إن شاء الله في متجركم، ونحن كاتمون إيماننا، خائفون على أنفسنا، متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرا».

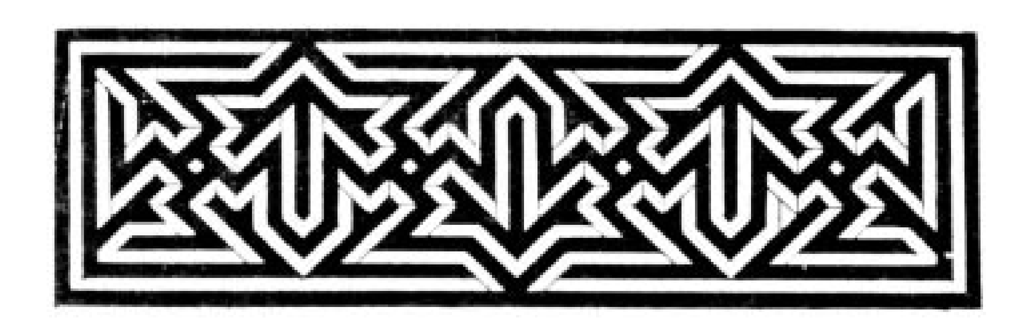
وعلى كل حال فإن الذى وصل إليه المؤرخون أن الدولة النورمانية في صقلية كانت تشمل المسلمين بقسط وافر من رعايتها وكانت تعترف بفضلهم وسبق مدينتهم في كثير من نواحي الحياة. وإذا لم يكن ما كتبه ابن جبير في هذا الصدد واضحا تماما، فإن سائر وصفه لبلاد صقلية عظيم الفائدة من الناحيتين التاريخية والجغرافية؛ لأنه كان دقيق الملاحظة في وصف الظواهر الاجتماعية. من ذلك ما فطن له من أن الخلاف بين أفراد الأسرة الواحدة من المسلمين كان يؤدي أحيانا إلى دخول بعضهم في المسيحية، فرارًا من رقابة أو ولاية أو علاقة شرعية أخرى.

ثم أقلع ابن جبير من صقلية على ظهر سفينة جنوية جملته إلى ثغر قرطاجنة في الأندلس فوصل إليها في الخامس عشر من المحرم سنة ٥٨١ ثم

واصل السفر حتى وصل إلى غرناطة في الثاني والعشرين من المحرم (٢٥ أبريل سنة ١١٨٥) بعد أن غاب عنها حول حول سنتين وثلاثة أشهر.

وقام ابن جبير برحلة ثانية إلى الشرق الإسلامي سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م)، استغرقت سنتين وبضعة أشهر. وقيل إن الذى جذبه إلى الشرق هذه المرة ما سمعه من استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م). ثم ترك ابن جبير المقام في غرناطة وانتقل إلى بلاد المغرب حيث أقام عشرين سنة أو نيف؛ رحل بعدها إلى الشرق مرة ثالثة سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م). وقيل إن ذلك كان بسبب وحده على زوجه عاتكة، التى توفيت في تلك السنة والتى نظم فيها ديوانه «نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح». واستقر ابن جبير في الإسكندرية، وتوفى بها في السنة نفسها وقد جاوز الثانية والسبعين.





الهروى السائح

هو على بن أبى بكر - وقيل أبى طالب - بن على الهروى الأصل. ولد في الموصل. وطاف في أنحاء الشرق الإسلامي وفي الهند وفي القسطنطينية والمغرب وصقلية وغيرها من جزائر البحر الأبيض المتوسط. وكان مغرما بالأسفار وبكتابة اسمه على الآثار التى يزورها، حتى كتب عنه ابن خلكان «أنه لم يترك برًا ولا بحرًا ولا سهلا ولا جبلا من الأماكن التى يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه» وقد سار ذكره بذلك، حتى عرف باسم الهروى السائح.

والمعروف أنه زار القسطنطينية في زمن الإمبراطور عمانوئيل كومنينوس، وأنه زار دمشق سنة ٥٦٨هـ (١١٧٣م) قبل أن يستعيدها صلاح الدين من يد الصليبيين. وكان في الإسكندرية سنة ٥٧٠هـ. ثم كان في قافلة نهبها الصليبيون سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م)؛ ففقد فيها كتبه وبعض المذكرات التى جمعها، ولعله كان حانقًا لهذا السبب؛ أو لعل تقواه وشدة اعتداده بنفسه حملاه على أن يرفض مقابلة الملك ريكاردوس قلب الأسد، الذى سمع بفضله، وحرص على أن يتحدث إليه.

واتصل الهروى في خاتمة حياته بالملك الظاهر بن صلاح الدين؛ فأقام تحت رعايته في حلب إلى أن توفى سنة ٦١١هـ (١٢١٤م).

وقـد وصل إلينا من مؤلفـات الهـروى كتـاب «الإشارات إلى مـعرفـة الزيارات» ولا يزال مخطوطًا لم يطبع إلى اليوم: ولكن الرحـالة يشير فيه إلى كـتب أخرى من تأليـفه، مـثل كـتاب «منازل الأرض ذات الطول والعـرض» و«كتاب الآثار والعجايب والأصنام».

أما كتـاب الإشارات إلى معرفـة الزيارات، فقوامه ذكر الآثـار والعمائر الدينية التى زارها الهروى والتى يستطرد في الحـديث عنها إلى بعض البيانات التاريخية الطريفة. وفي دار الكتب المصـرية نسخة مخطوطة منه بعنوان «رحلة أبى الحسن بن أبي بكر بن على الهروى الموصلى، تمت كـتابتها سنة ٦٠٢هـ» أي قـبـل وفـاة المؤلف. ومما يـؤسف له أن هذه الرحلة غنـيـة بالخـــرافـات والأساطيـر، وإن كنا نجد في بعض أجـزائها وصـفًا وأحاديث تـدل على دقة الملاحظة.

وقد نسخ الهروى على منوال كثير من المؤلفين، فقال في مقدمة كتابه إن بعض الإخوان والخلان سألوه أن يذكـر لهم ما زاره من الزيارات، وما شاهده من العجـائب والأبنية والعمـارات، وما رآه من الأصنام والآثار والطلمـسات «في الربع المسكون والقطر المعـمور» وأنـه رفض أن يلبى هذا الطلب، إلى أن اجتمع برسول الخليفة العـباسي إلى صلاح الدين، وأقنعه هذا الرسول بتأليف الكتاب الذى وصل إلينا.

ومن الطريف أن الهروى اعـتذر عما في الكتاب مـن خطأ فقال: «وإن جرى السـهو فيمـا أذكره بطريق الغلط لا بطريق القـصد، فأسأل الناظر فـيه والواقف عليـه الصـفح في ذلك وإصلاح الخطأ وإيضـاح الحق؛ فـإن كتـبي أخذها الانكتار ملك الفرنج؛ ورغب في وصوله إليه، فلم يمكن ذلك، ومنها ما غـرق في البحـر، وقد زرت أماكن ودخلت بلادًا من سنـين كثيـرة؛ وقد

نسيت أكثر ما رأيته، وشذ عنى أكثـر ما عاينته، وهذا مقام لا يدركه أحد من السـائحين والزهاد، ولا يصل إليه أكـثر المسـافرين والعـباد، إلا رجـل جال الأرض بقدمه، وأثبت ما قلته بقلبه وقلمه».

ومما كتبه الهروى: «الأهرام من عجائب الدنيا، وليس على وجه الأرض شرقيها وغربيهـا عمارة أعجب منها ولا أعظم ولا أرفع، ورأيت بمصر أهرامًا كثيرة منها خـمسة كبار والباقي صغار. فأمـا الكبار فاثنان عند الجزيرة واثنان عند قرية يقـال لها دهشور، وهرم عند قرية يقـال لها ميدوم، وقـد اختلفت أقاويل الناس فيها وفي بانيها وما يريد بها، ومنهم من قال إنها قبور للملوك، ومنهم من قال إنهم عـملوها خوفًا من الطوفـان، وقيل إن المأمون فـتح هرمًا منها، وهو أحد الهرمين اللذين عند الجزيرة؛ فـوجدوا داخله بئرًا مربعة، في تربيعها أبـواب يفضى كل باب منها إلى بيت فيه موتى بأكـفانهم، وقيل إنهم وجدوا في رأس هذا الهرم بيتًـا فيه حوض من الصخر على مثال القـبر، وفيه صنم كـالآدمى الرهـنج، وفي وسطه إنسـان عليـه درع مـن الذهب مـرصع بالجوهر، وعلى صدره سـيف لا قيمة له وعند رأسـه حجر ياقوت كالبـيضة كالنار«. وأضاف الهروى أنه دخل إلى هذا الهرم ورأى الحوض واضحًا، وقد كتب أنه سيذكـر في كتاب العجائب والآثار والأصنام والطلسمـات جميع ما سمعه من أخبار الأهرام والضم أبى الهـول وجميع البرابى (المعابد) التى ببلاد الصعيد.

ومما دونه عن الأقصر: «مدينة بها من الآثار والقصور والأصنام، وصور الأصنام وصور السباع والدواب ما لم أر مثله في بلاد الصعيد ولا في غيرها، وذرعت يد صنم فكان من المرفق إلى مفصل الكف سبعة أذرع».

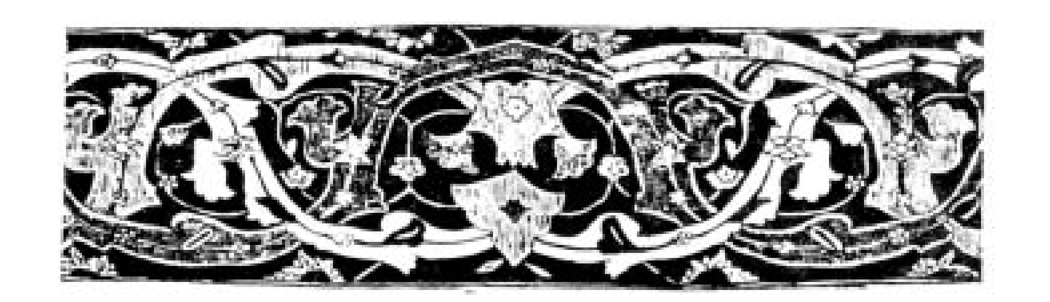
وقد كـتب الهروى عن المـقابر الأثرية في صـعيـد مصر، وعن الجـثث

المدفـونة فـيهـا، وعن أكـفـانهـا المحفـوظة على حـالهـا الأولى. والحق أن الاكتشافات الأثـرية الحديثة، والمنسوجات الوافرة التى عثر عليـها المنقبون عن الآثار في تلك المقابر، كل ذلك يؤيد ما كتبه الهروى كل التأييد.

وكـتب عن أسوان: «آخـر بلاد الصعـيـد وبلاد الإسلام وبهـا الجنادل حجارة نابتة في وسط البحر. فإذا كان وقت زيادة النيل، يوضع عليها سرج. فإذا زاد البحر وأخذها، وأرسلوا البشارة إلى مـصر. فينزلوا في مركب صغير ويسبـقوا الماء ويبشروهـم بالزيادة. وجميع معـادن حجارة المانع والعـمد التى بالديار المصريـة ومسال فـرعون وعمـد السوارى بالإسكندرية من جـبال هذه المدينة. ورأيت آثار القطاعات في الجبل والحجارة المانع والعمد مقطوعة».

وقـد أعجب الهـروى بما رأى في مصـر من زهور ونبـات، فكتب في رحلته «وبالجملة في ديار مصر ونيلهـا من عجائب الدنيا، ورأيت بها في أوان واحد مجـتمعًا وردًا ثلاثة ألـوان وياسمين لونين ونيلوفر لونين وآسا ونسـريتا وريحانًا وخبـزيًا وبنفسجًا ومنتـورًا ونبقًا وأترنجًا وليـمونًا مركبًا وطـلعًا ورطبًا وموزًا وجميزًا وحصرمًا وعنبًا وطينًا (تينًا) أخضر ولوزًا وقثاء وفقوسًا وبطيخًا وباذنجانًا وباقـلاً أخضر ويقـينًا وحمصًـا أخضر وخسًـا وجوزًا أخضـر ورمانًا وهليونًا وقصب سكر».





أسامة بن منقذ

هو أسامة بن مـرشد من بنى منقذ، أمراء إقليم شيزر شـمالي سورية. ولد سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥). وكانت إمارة هذا الإقليم قـد آلت إلى أبيه مرشد ولكنه تنازل عنها لأخـيه. وعنى الأمير بأسامـة، ابن أخيه؛ ولكنه رزق ولدًا ذكرًا فـاتجه إليه بعطفه، مـهملا أسامـة. وغادر هذا قلعة شيـزر. وحدث أن دمرت هذه القلعة في زلزال سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م) ومات من كان فيها من آل منقذ. أما أسـامة فقد كان في بعض أسـفاره. ومات سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م) بعد أن جاوز التسعين.

وقد قـام أسامـة بعدة رحـلات في مصـر والشام وبلاد الجـزيرة وبلاد العرب. ومع أنها رحلات ضيقة الأفق مـحدودة الدائرة، فإن لها شأنًا عظيما في وصف الحيـاة الاجتماعـية والاقتـصادية، وفي بيان العـلاقة بين المسلمين والمسـيحـيين في الشـرق الأدنى في القرن السـادس الهـجري (الثـاني عشـر الميلادي). ذلك أن أسامة كـان أميرًا فارسًا وأديبًا شـاعرًا، وأتيح له أن يتصل بأمـراء المسلمين في عـصـره، وأن يلقى بعض الأمـراء الصليبـيين ويصـادق الفرسـان من رجالهم. وأخـبار رحلته في كـتابه «الاعتـبار» تمتـاز بالدقة في الملاحظة، والصدق في الرواية، والإبداع في الفن القصـصي، مع التوفيق في الفكاهة وإيراد النكتة.

وقد وقف الدكتور فيليب حِتّى Philip Hitti اللبنانى أستاذ الآداب السامية في جامعة برنستون بالولايات المتحدة على نشر كتاب الاعتبار سنة ١٩٣٠. وقدمه بترجمة طريفة لأسامة، قال فيها: «فحياة أسامة إذن تمثل لنا الفروسية الإسلامية العربية على ما ازدهرت في ربوع الشام في أواسط القرون الوسطى، والتى بلغت حدها الكامل في صلاح الدين، وسيرته تتضمن موجز تاريخ البلاد في القرن الثاني عشر - قرن التجريدات الصليبية الثلاث الأولى، ومذكراته الموسومة بكتاب «الاعتبار» مرآة تتجلى فيها المدينة الشامية في أجلى مظاهرها - وذلك ليس بحد ذاتها فقط بل مع المدينة الإفرنجية التى قامت إلى جانبها. ولو أن أسامة عاش اليوم، لكان عضوا عاملا في المجمع العلمي العربي، ولكان بيته صالونًا للأدب بدمشق، ولراسل «الهلال» و«المقطم» ولأكثر من العيش في الهواء الطلق، يدرس طبائع الحيوان ويرقب نمو النبات، ولنالت جياده العربية جوائز السبق في بيروت، ولكان بلا تردد في أثناء الحرب العظمى ديوان فرقة من المطوعة يتولى قيادتها بنفسه».

وكتاب «الاعتبار» غنى بأخبار القتال بين المسلمين والصليبيين، وبما شاهده أسامة في دمشق ومصر، وبما اشترك فيه من المطارد والمصايد ومكافحة الأسود. ومن أمتع فصوله ما كتبه أسامة عن الصليبيين؛ فقد كان يطوف في أنحاء إماراتهم، ويقاتلهم مع سائر المسلمين مع صداقته لبعضهم ولا سيما الفرسان الداوية Templars - وكان هؤلاء الفرسان يخلون له في المسجد الأقصى مكانا صغيرًا يصلى فيه حين يزور بيت المقدس. ومما كتبه عن الإفرنج: «ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة. يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها. والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث. فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث

ومضى!». وساق أسامة ثلاث قصص في هذا الصدد. منها قصة إفرنجى «جاء يومًا ووجد رجلا مع امرأته في الفراش» فقال له: «أى شيء أدخلك إلى عند امرأتى؟» قال «كنت تعبان، دخلت أستريح». قال «فكيف دخلت إلى فراشي؟» قال «وجدت فراشًا مفروشًا نمت فيه» قال «والمرأة نائمة معك؟» قال «الفراش لها. كنت أقدر أمنعها من فراشها!؟» قال الزوج «وحق ديني، إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت» - فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته!».

وكان أسامة يعجب بمهارة بعض أطباء الصليبيين، ولكنه كان يتهكم من جهل البعض الآخر ومن سذاجة الناس في الإيمان بهم. وروى في هذا الصدد قصة عن حاكم بلدة صليبية شمالى لبنان. كان هذا الحاكم صديقًا لعم أسامة فكتب إليه يطلب منه إيفاد طبيب يداوى بعض المرضى من أهل بلدته. فأرسل إليه عم أسامة طبيبًا عربيًا نصرانيًا. ولم يطل غياب هذا الطبيب؛ فلما رجع قال له أهل أسامة متهكمين: ما أسرع ما داويت المرضى! فأجاب «أحضروا عندى فارسًا قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف[1]. فعلمت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت. وحميت المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجى فقال «هذا ما يعرف شيء يداويهم!» وقال للفارس «أيهما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟» قال «أعيش برجل واحدة» قال «أحضروا لي فارسًا قويًا وفأسًا قاطعًا». فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب فقال للفارس «أضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها» فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته. وأبصر المرأة فقال «هذه امرأة من رأسها شيطان قد عشقها. احلقوا شعرها» فحلقوه. وعادت تأكل من مآكلهم

---

(١) نوع من الهبوط والتعب العصبي.

الثوم والخردل فـزاد بها النشاف. فقـال «الشيطان قد دخل في رأسهـا» فأخذ الموسى وشق رأسها صليبًا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت في وقتها. فقلت لهم «بـقى لكم إليّ حاجة؟!» قالوا «لا» فجئت وقد تعلمت من طبعهم ما لم أكن أعرفه[1]!».

وروى أسامة في كـتاب الاعتبار (ص ١٣٤ - ١٣٥) قصـة استنبط منها أن الصليـبيين ترق أخـلاقهم وتحـسن طباعـهم باستـيطان الشـرق ومعـاشرة المسلمين. وقال في هذا الصـدد: «فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفـرنجية أجفى أخلاقًا من الذين تبلدوا[2] وعاشروا المسلمين».

بل أشار أسـامة في كـتابه إلى أن بعض الصليـبيين تأقلمـوا في الشام، وعاشـروا المسلمين وتطبعـوا بطباعهـم، وكانت بينهم وبين المسلمين عـلاقات طيبة قال أسامة «فمن ذلك أنى نفذت صاحبا إلى أنطاكية في شغل. وكان بها الرئيس تادرس بن الصفتى (Theodorus Sophianos) وبينى وبينه صداقة، وهو نافـذ الحكم في أنطاكيـة. فقـال لصاحـبي يومًا «قـد دعاني صـديق لي من الإفرنج. تجئ مـعى حتى ترى زيهم؟» قـال «فمضـيت معه، فـجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق، الذين خرجـوا في أول خروج الإفرنج، وقد اعتفى من الديوان والخدمـة، وله بأنطاكيـة ملك يعيش منه، فـأحضر مـائدة حسنة وطعامًا في غاية النظافة والجودة. ورآني مـتوقفًا عن الأكل؟ فقال: »كل طيب النفس، فأنا مـا آكل طعام الإفرنج، ولى طبـاخات مصـريات ما آكل إلا من طبيخهن ولا يدخل دارى لحم الخنزير، فأكلت وأنا محترز وانصرفنا».

---

(١) كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ص ١٣٢ -١٣٣.

(٢) لعل يقصد «تأقلموا» وأصبحوا من أبناء البلد.

وقد وصف أسامة في «كتاب الاعتبار» ما شاهده في مصر من الأحداث فيما بين سنتي ٥٣٩ و٥٤٩هـ (١١٤٤-١١٥٤م) فتحدث عن وصوله إليها في عصر الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله وعما وقع فيها من الفتن بسبب ثورات الجند، والنزاع القائم بين الخلفاء والوزراء. ولتفاصيل هذه الأخبار شأن تاريخي كبير لأن أسامة ساهم في بعض تلك الأحداث وقام بمهمات سياسية لطائفة من الأمراء. ومن طريف ملاحظاته عن إقليم الطور أنه كان ولاية مصرية بعيدة وأن الخليفة الحافظ لدين الله كان إذا أراد إبعاد بعض الأمراء ولاه الطور.

* * *

أما الباب الذى عقده أسامة في ذلك الكتاب الكلام على الصيد والطرد فيشهد بأن هذا اللون من الرياضة كان جد شائع ومستحسن في الشرق الإسلامي حينذاك. وهو جليل الشأن لأن أسامة كان من أسرة أصابت في الصيد مهارة ودربة؛ وقد أتيح لأسامة نفسه أن يصحب في الصيد الأمراء المسلمين في سورية والجزيرة ومصر. فدوّن في كتابه شيئًا كثيرًا في شأن الصيد بالبزاة يرمونها على الطيور ويدقون الطبول فتتصيد منها ما تصيد. وكتب في صيد الحيوان ولا سيما الذئب والضبع والأرنب والغزال وحمار الوحش والثعلب والخنزير. ووصف أسامة أساليب الصيد عند المسلمين وصفًا دقيقًا. وذكر بعض النوادر التى تدل على عنايتهم به وعلى أن بعض المولعين بالصيد كانوا يرسلون إلى مختلف الآفاق في طلب البزاة وغيرها من طيور القنص. وكان التعاون صادقًا بين المسيحيين والمسلمين في هذا الميدان؛ فكان الروم في القسطنطينية والمسيحيون من الأرمن يرسلون البزاة والكلاب إلى أصدقائهم من هواة الصيد في الشرق الإسلامي.

وكان أسامة يحترم المرأة ويعنى بأحوالهـا فألف كتابًا في «أخبار النساء» وروى في «كتـاب الاعتبار» قـصصًا كثـيرة تشهد بما قـام به بعض النساء من أعمال الـبطولة. ولعل هذا جانب من الفروسيـة ونزعة الأرستقـراطية عنده. والحق أن هذه النزعة الأرسـتقراطيـة كانت لا تفـارقه حتى في حـضرة الملوك والأمراء. فقد روى في «كتاب الاعتبار» أنه شهد يومًا الصيد مع الملك العادل نور الدين وسأله هذا أن يصلح الباز فرفض وأظهر نور الدين عجبه من أسامة يقضى عمره بالصيد ولا يحسن إصلاح الباز، فأجاب أسامة: «يا مولاى، ما كنا نصلحها نحن، كان لنا بازيارية وغلمان يصلحونها ويتصيدون بها قدامنا».

* * *

ومما حدث لأسامة في بعض رحـلاته أن وقع وهو ورفاقه أسرى في يد الصليبيين وفـقدوا ما كانوا يحملونه من المال والمتـاع؛ ولكن أسامة لم يأسف على ذلك كله أسفه على ضياع كتبـه التى نبهوها، وعددها أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة؛ وقال في ذلك إن ذهابها كان حزازة في قلبه ما عاش[1].

ومن طريف ما يستنبط من إحدى القصص التى رواها أسامة فى «كتاب الاعتـبار» (ص ١١٥) أن استئـجار الندابات للندب في المآتم كان معـروفا في القرآن الثاني الميلادي كما هو معروف اليوم.

وكان أسامة، مثـل الهروى السائح، مغرمًا بكتابة اسمـه أو تقييد بعض خواطره في الأمكنة التى ينزل بها، على نحو ما يفعل بعض السياح في العهد الحاضر. من ذلك الأبيات الآتيـة، وقد كتبها على حـائط مسجد في حلب، وكان قد زار المسجد قبلا في طريقه إلى الحج:

(١) كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ص ٣٤ - ٣٥ .

لك الحمد يا مـولاى كم لك مـنة علىّ وفضـل لا يحـيط بها شكرى

نزلت بهذا المسجـد العـام قافـلا من الغزو موفور النصيب من الأجر

ومنه رحلت العيس في عامى الذى مضى نحو بيت الله والركن والحجر

فأديت مفـروضًا وأسقـطت ثقل ما تحملت من وزر المسـيئة عن ظهرى

ومنه مـا كـتبـه على حـائط دار سكنهـا بالموصل، حـيث لم تطب له الإقامة. قال:

دار سكنت بها كرهًا وما سكـنت روحـى إلى شجـن فيها ولا سكن

والقبر أسـتر لى منها وأجـمل بى إن صدنى الدهر عن عودى إلى وطنى





ياقوت الحموى

كان ياقوت يوناني الجنس. ولد حول سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م) وأسر في حداثته، وبيع إلى تاجر حموى مقيم في بغداد، فنشأ مسلمًا، وعنى التاجر بتعليمه لينتفع به في تجارته، فتلقى العلوم المعروفة في عصره. ثم قام بعدة أسفار في أعمال تجارية لسيده، ولا سيما بمنطقة الخليج الفارسي. وأعتقه مولاه سنة ٥٩٦هـ (١١٩٩م). وأشركه في تجارته، وأخذ يبعثه في شئونها إلى الأصقاع المختلفة. وحدث أن دب بيهما الخلاف، فاحترف ياقوت نسخ الكتب، وأفاد من ذلك كثيرًا، ثم صافى سيده السابق، واستأنف الأسفار التجارية. ومات السيد، فاشتغل ياقوت بتجارة الكتب؛ ولكنه لم يلبث إن عاد إلى حياة الأسفار والرحلات، فجال في إيران وبلاد العرب وآسيا الصغرى ومصر والشام وبلاد ما وراء النهر. وأقبل على التنقيب في خزانات الكتب، فجمع المواد اللازمة للمعاجم التى عقد العزم على تأليفها في أسماء البلاد وتراجم الأدباء.

ويلوح أنه أفاد من خزائن مدينة إفادة كبيرة؛ فقد أشار إلى ذلك في كلامه على هذه المدينة في «معجم البلدان»؛ فذكر أنه أقام بها ثلاثة أعوام وأنه



[عن كتاب الرواد]

خريطة الكرة الأرضية للشريف الإدريسى

تركها وفيها عشر خزانات كبيرة، لم ير في أي مدينة أخرى مثلها. وكان العمل فيها واستعارة كتبها الموقوفة أمرًا سهلا، حتى أن عدد ما كان عند ياقوت من هذه الكتب في الآن الواحد كان يقرب من مائتي مجلد. والظاهر أنه كان يدفع رهنا للنادر منها. ولكن أكثرها كان بغير رهن. وقد ختم ياقوت حديثه عن هذه الخزانات بقوله «فكنت أرتع فيها، وأقتبس من فوائدها، وأنساني حبها كل بلد، وأنهاني عن الأهل والوالد. وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته، فهو من تلك الخزائن».

❊ ❊ ❊

والمعروف أن ياقوت لم يدون أخبار رحلاته. ولا ريب في أن ما شاهدته في أسفاره وما جمعه من الخزائن التي نقب فيها، كان خير عدة له في تأليف كتابه «معجم البلدان» الذي امتاز بترتيبه على حروف الهجاء، وبدقته واتساعه وجمعه بين الجغرافية والتاريخ والعلم والأدب، حتى أن أحد المستشرقين قال فيه إنه من المؤلفات التي يحق للإسلام أن يفخر بها كل الفخر(1). وقد فرغ ياقوت من تأليف هذا المعجم في سنة ٦٢١هـ (١٢٢٤م).

ومما يؤسف له أننا لا نستطيع أن نحدد مقدار ما أفاده ياقوت من رحلاته تحديدا دقيقا. فإنه نقل في معجمه عن كثير من الجغرافيين والرحالة والمؤرخين، ولم يعين الأقاليم التي زارها بنفسه وكتب عنها مشاهداته الخاصة؛ مع أنه كان من أكثر العلماء طوافا في عصره، ومن أشدهم عناية بالتاريخ الطبيعي ومظاهر الثقافة الشاملة، ومن أبعدهم عن الأخذ بالخرافات

---

(١) Carra de Vaux: Les penseurs de l,lslam ج٢ ص١٩.

والأساطير. وقد عني أحـد المستشرقين (Heer) في نهاية القرن الماضي بدراسة معجـم البلدان وأخرج بحثا في المراجع التـاريخية والجغـرافية التي اعتـمدها ياقوت لتصنيف هذا المعجم. ولكن أحدا لم يستطع حتى الآن أن يبين الخاص وآثار أسفاره وتجاربه في هذه الموسوعة الجغرافية الجليلة الشأن.

* * *

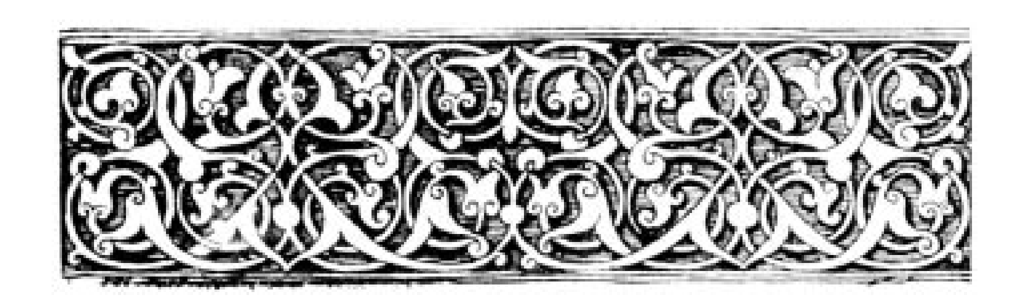
ومهما يكن من شيء فقد امتاز ياقوت عن كثير من مؤلفي العرب بملكة النقد التـي كانت تتجلى في روايتـه بعض الأساطيـر الذائعة في عـصره وفي حكمه على بعض الأساطير والتعليل لهـا. من ذلك ما لاحظه الدكتور حسين فوزي في كـتابه «حديث السندباد القـديم» (ص١٢٣). فقد كـتب ياقوت في مادة (جاسك) من «معجم البلدان»:

«جاسك بفتح السين المهملة وآخره كاف. جـزيرة كبيرة بين جزيرة قيس هي المعروفـة بكيش - وعمان قبـالة مدينة هرمز. بينهـا وبين قيس ثلاثة أيام وفيهـا مساكن وعمـارات يسكنها جند ملك جزيرة قيـس. وهم رجال أجلاء أكفـاء لهم صـبر وخـبرة بالحـرب في البحـر وعلاج للسـفن والمراكب ليس لغيرهم. وسـمعت غير واحد من جزيـرة قيس أهدى يقول أهدى إلى بعض الملوك جـواري من الهند في مـراكب فرفـأت تلك المراكب إلى هذه الجـزيرة فخرجت الجـواري يتفسحن فـاختطفهن الجن وافترشـهن فولدن هؤلاء الذين بها».

وطبيـعي أن يروى ياقوت هذا الحـديث المتداول بين أهل زمـانه؛ ولكنه يحرص على أن يشعرنا بأنه أسطورة وعلى أن ينسبه إلى قائليه فينص على أنه سمـعه من «غـير واحد من دجـزيرة قيس» كـما يحرص بعـد هذا كله على محاولة تفسيره فيضيف:

«يقولون هذا لما يروى فـيهم من الجلد الذي يعـجز عنه غيـرهم، ولقد حدثت أن الرجل منهم يسـبح في البحر أياما وأنه يجالد بالـسيف وهو يسبح مجالدة من هو على الأرض».





عبد اللطيف البغدادي

ولد عـبد اللطيف بن يوسف في بغـداد سنة ٥٥٧هـ (١١٦٢م) ودرس الطب والفلسـفة وعلـوم اللغة. وتنقل بين مـصـر والشام والعـراق. واتصل بصلاح الدين وغيره من الأمراء الأيوبيـين. واجتمع بأعلام الأساتذة ولم يكن «يأخذ بقلبه ويملأ عـينه» إلا النفر القليل منهم. وقد لقى الفـاضل في معسكر صلاح الدين بظاهر مـدينة عكاء. وزوده القاضي الفاضل بكتاب تـوصية إلى وكيله في مصر، وهو ابن سناء الملك. ولـكن عبد اللطيف لم يلبث أن غادر مصر ورحل إلى القدس للقاء صلاح الدين، ثم يمم شطر دمشق. وقدم مصر ثانية بـعد وفاة صـلاح الدين واشتـغل بالتدريس في الأزهر، وشـاهد الغلاء الفاحش والقـحط والوباء والشدة العظمـى التي ألمت بوادي النيل فيـما سنتي ٥٩٥ و٥٩٨هـ (١١٩٨ - ١٢٠١).

وأهم ما وصل إلينا من مؤلفـات عبد اللطيف البغدادي كـتاب «الإفادة والاعتـبار في الأمور المشاهدة والحـوادث المعانية بأرض مـصر». وهو وصف رحلته إلى وادي النيل في نـهاية القرن السادس الـهجري. وقد ذاعت شـهرة هذه الرحلة، وترجـمت إلى بضع لغـات أوروبية. والحـق أنها تمتـاز - على اختصـارها - بدقة الوصف، وذكر مختلف الشئـون العمرانية والاجتمـاعية،



[عن فييت]

رسم سفينة عربية في مخطوط من القرن السابع الهجري (١٣م)

فضلا عن الاتجـاه العلمي المنتظر من طبيب مثل البغـدادى، والذى يتجلى في كلامه على خواص مـصر العامة، وعلى ما تختص به مـن النبات والحيوان، وعلى ما فيـها من الآثار القديمة مثل الأهرام وأبى الهـول والمسلات، والمعابد في مصر العليا، ومنارة الإسكندرية وعمود السوارى.

* * *

ومن الطريف أن عبـد اللطيف سجل في رحلته رأيًا في قيـمة الآثار قد يظن بعضهم أنه غريب على المسلمين في العـصور الوسطى. أجل، فقد كتب هذا الرحالة:

«وما زالت الملوك تراعى بقـاء هذه الآثار وتمنع من العيث فيهـا والعبث بها، وإن كـانوا أعداء لأربابهـا. وكانوا يفـعلون ذلك لمصالـح: منها لتـبقى تاريخًا يتنبه به على الأحقـاب. . . ، ومنها أنها تدل على شيء من أحوال من سلف وسيـرتهم وتوافر علـومهم وصفـاء فكرهم وغيـر ذلك. وهذا كله مما تشتاق النفس إلى معرفته وتؤثر الإطلاع عليه».

ولكنه أضـاف إلى ذلك أن الـقـوم في عـصـره كـانوا يخـربون الآثار ويكسرون الأصنام، ويدخلون إلى المقابر بحثًـا عن الكنوز وسعيًا وراء الذهب المدفون مع الموتى. والحق أن مـا كتبه البـغدادي عن المقابر الأثرية ومـا يوجد فيها لا يختلف كثيراً عما وصلت إليـه الحفائر العلمية في العصر الحاضر، أي بعد وفاة البـغدادى بسبعمائة سنة ونـيف، بل إن الفصل الطويل الذى عرض فيه لآثار مصـر فيه من دقة الوصف وشدة الإعجاب مـا يبدو كأنه بقلم عالـم من علماء الآثار المحدثين.

* * *

أما ما ذكره البغدادى عن حوادث مصر سنة ٥٩٥ وسنة ٥٩٨هـ فوصف تقشعر لهوله الأبدان، إذ اشتد القحط حتى أكل الفقراء لحم الميتة والكلاب: بل «تعدوا إلى أكل صغار بنى آدم». ولم يفت الرحالة أن يلاحظ أن فريقًا من الناس استغل هذه الشدة العظمى على حساب الطبقات الفقيرة في الشعب، فأثبت في أخبار رحلته أن «مما يقضى منه العجب أن جماعة من الذين ما زالوا مجدودين سعدوا في دنياهم هذه السنة. فمنهم من أثرى بسبب متجره في القمح. ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل إليه بالإرث. ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معروف».

وروى عبد اللطيف قصصًا مروعة عن الجوع والوباء وتصيد الناس وأثر هذا كله في الانصراف إلى الضلالة والشهوات. وكأنه شعر بما يحمله بعضها من طابع المبالغة فقال: «ولو أخذنا نقص كل ما نرى ونسمع لوقعنا في التهمة أو في الهذر. وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظانه؛ وإنما هو شيء صادفناه اتفاقًا، بل كثيرًا ما كنت أفر من رؤيته لبشاعة منظره». والمعروف أن مصر ابتليت بمثل هذا القحط عدة مرات في تاريخها الطويل. وحسبنا أن المقريزى، شيخ المؤرخين المصريين في العصور الوسطى، ألف كتاب «إغاثة الأمة بكشف الغمة»، بحث فيه المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٥م)، فتقضى أسبابها، وأشار إلى الأساليب الممكنة لعلاجها.

والحق أن البغدادي كان دقيق الملاحظة في كل ما دونه في رحلته عن أرض مصر ومناخها ونباتها وحيوانها، ومن ذلك قوله: «إن أرض مصر رملية لا تصلح للزراعة؛ لكنه يأتيها طين أسود علك فيه دسومة كثيرة يسمى الإبليز؛ يأتيها من بلاد السودان مختلطًا بماء النيل عند مده؛ فيستقر الطين،

وينضب الماء، فيحرث ويزرع. وكل سنة يأتيها طين جديد، ولهذا يزرع جميع أراضيها ولا يراح شيء منها، كما يفعل في العراق والشام».

ولاحظ عبد اللطيف أن مصر لم يكن بها فراريج عن حضان الدجاج إلا نادرًا؛ فقد كان في البلاد كثيرًا من معامل الفروج، وكان القوم يتقنون صناعة حضانة الفراريج، ويتخذونها صناعة ومعيشة يتجر فيها ويكتسب منها، وقد أسهب الرحالة في وصف طريقة المصريين في بناء تلك المعامل واستخدام زبل البقر حتى لا يبقى فيها منفس للبخار.

ورأى البغدادي أن كثيرًا من الناس يدخلون الهرم الأكبر؛ وذكر أن الطريق المسلوك في هذا الهرم زلاقة تفضى إلى قلعة فيها ناووس من حجر؛ ولاحظ أن مدخل الهرم ليس الباب المتخذ له في أصل البناء، وإنما منقوب نقبًا صودف اتفاقًا، وأعجب ببناء الأهرام إعجابًا عظيمًا فقال: «وقد سلك في بناء الأهرام طريق عجيب من الشكل والإتقان؛ ولذلك صبرت على ممر الزمان، بل على ممرها صبر الزمان، فإنك إذا تبحرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها، والملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثلا هي غاية إمكانها، حتى أنها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالهم وتنطق عن علومهم وأذهانهم وتترجم عن سيرهم وأخبارهم، وذلك أن وضعها على مخروط يبتدئ من قاعدة مربعة وينتهى إلى نقطة، ومن خواص الشكل المخروط أن مركز ثقله في وسطه، وهو يتساند على نفسه، ويتواقع على ذاته، ويتحامل بعضه على بعض؛ فليس له جهة أخرى خارجة عنه يتساقط عليها، ومن عجيب وضعه أنه شكل مربع قد قوبل بزواياه مهاب الرياح الأربع؛ فإن الريح تنكسر سورتها عند مصادمتها الزاوية، وليست كذلك عند ما تلقى السطح».

ولم يكن البغدادي سـائحًا عابرًا؛ بل كان يبحث ويتفـهم. فنراه، مثلا قد سمع أن في القرية المجاورة للأهرام قـومًا اعتادوا ارتقاء الهرم بدون عناء، فاستدعى أحدهم وأعطاه شيئًا من النـقود وطلب إليه أن يصعد إلى قمته وأن يقيس أبعـاده عندها، ولكنه لم يطمئن بعـد ذلك إلى قياسـه، فدون رأيه في خطأ هذا القيـاس، وعلق عليه بقـوله: «وإن ساعدت المقـادير توليت قيـاسه بنفسي».

وأشار البغـدادي إلى المغارات الموجودة على ضفة النيل الشـرقية جنوبى القاهرة وقال إنها: «مـقابر كثيرة العدد كـبيرة المقدار عميقـة الأغوار متداخلة وفيـها ما هو ذو طبـقات ثلاث، وتسـمى المدينة، حتى لعل الفـارس يدخلها برمحه ويتخللها يومًا أجمع، ولا ينهيها، لكثرتها وسعتها وبعدها، ويظهر من حالها أنها مقاطع حجارة الأهرام».

وشاهد عبد اللطيف أبا الهول وأعجب بتناسب وجهه وباستطاعة الفنان أن يحفظ نظام التناسب فى الأعضاء مع عظمها.

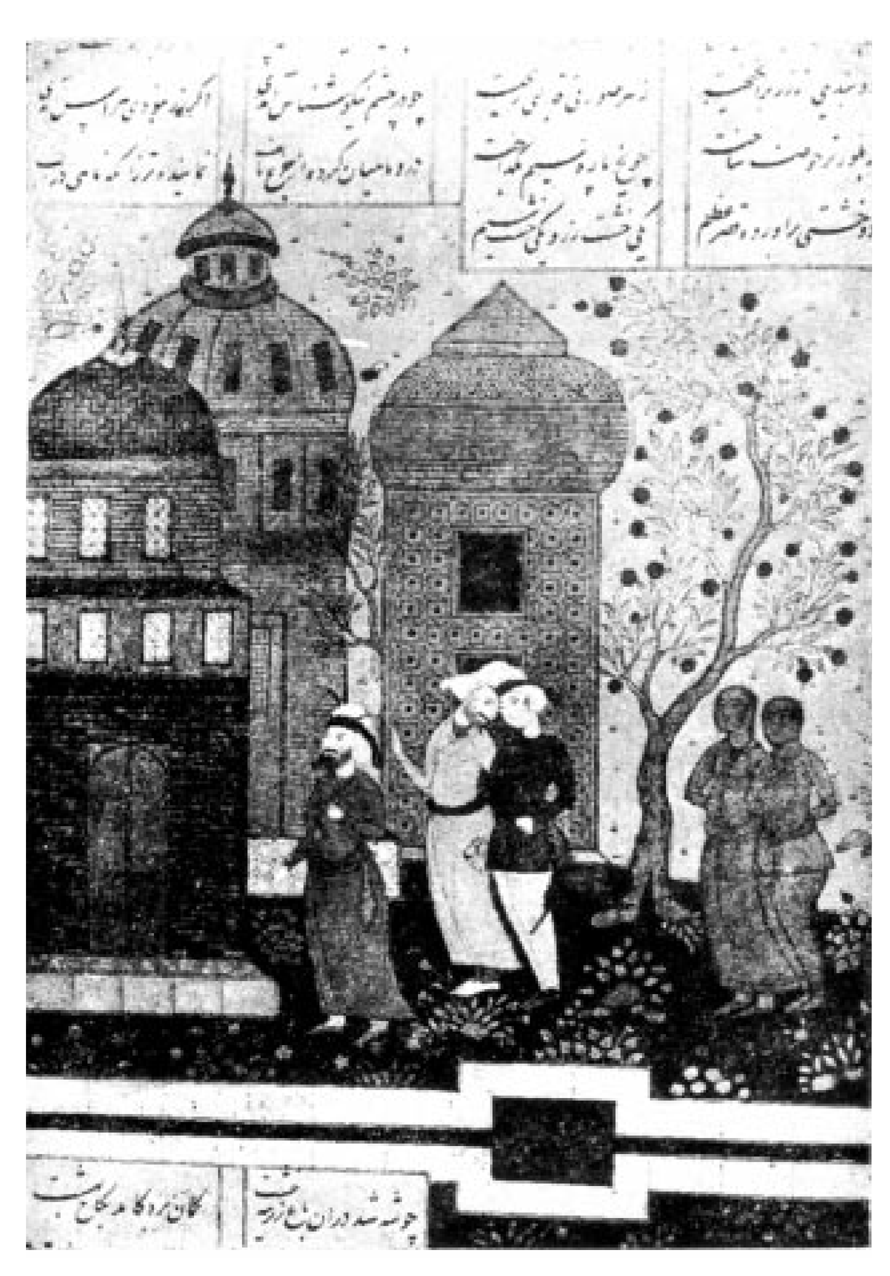
وصفوة القول أن البغدادى أطنب فى وصفه آثار مصر وأعمل الفكر فى بيان عظمتها، وحسبنا أنه ختم ما كتبه عنها بعبارة أودعها كل شعوره في هذا الصدد. قـال: «وإذا رأى اللبيب هذه الآثار، عـذر العوام في اعتـقادهم عن الأوائل بأن أعمارهم كـانت طويلة وجثثهم عظيمة، أو أنه كـان لهم عصًا إذا ضربوا بهـا الحجر سعى بين أيديـهم، وذلك أن الأذهان تقصر عن مقـدار ما يحتـاج إليه في ذلك من علم الـهندسة، واجتـماع الهـمة، وتوفـر العزيمة، ومصـابرة العمل، والتـمكن من الآلات، والتفرغ للأعـمال، والعلم بمعـرفة أعضـاء الحيوان، وخـاصة الإنسان، ومـقاديرها، ونسب بعضـها من بعض، وكيفية تركيبها، وبصفاتها، ومقادير وضع بعضها من بعض».

وقد أطنب عبد اللطيف في وصف حمامات مصر وقال إنه لم يشاهد «أتقن منها وصفًا ولا أتم حكمة ولا أحسن منظرًا ومخبرًا. أما أولا فإن أحواضها يسع الواحد منها ما بين روايتين إلى أربع روايا وأكثر من ذلك، يصب فيه ميزابان ثجاجان حار وبارد، وقبل ذلك يصبان في حوض صغير جدًا مرتفع، فإذا اختلطا فيه جرى منه إلى الحوض الكبير، وهذا الحوض نحو ربعه فوق الأرض وسائره في عمقها ينزل إليه المستحم فيستنقع فيه. وداخل الحمام مقاصير بأبواب، وفي المسلح أيضًا مقاصير لأرباب التخصص حتى لا يختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عوراتهم. وهذا المسلح بمقاصيره حسن القسمة مليح البنية وفي وسطه بركة مرخمة وعليها أعمدة وقبة وجميع ذلك نرزوق السقوف مفوف الجدران مبيضها مرخم الأرض بأصناف الرخام مجزع باختلاف ألوانه وترخيم الداخل يكون أبدًا أحسن من ترخيم الخارج، وهو مع ذلك كثير الضياء مرتفع الآذاج، جاماته مختلفة الألوان ضافية الأصباغ بحيث إذا دخله الإنسان لم يؤثر الخروج منه؛ لأنه إذا بالغ بعض الرؤساء أن يتخذ دارًا لجلوسه وتناهى في ذلك لم تكن أحسن منه».

والواقع أن عبد اللطيف البغدادي أعجب بكل ما شاهد في القاهرة من غرائب الأبنية ووسائل الراحة التى قرنها أحد العلماء المحدثين بما نعرفه في الفنادق الحديثة من أرقى المخترعات وأساليب الترف(١).

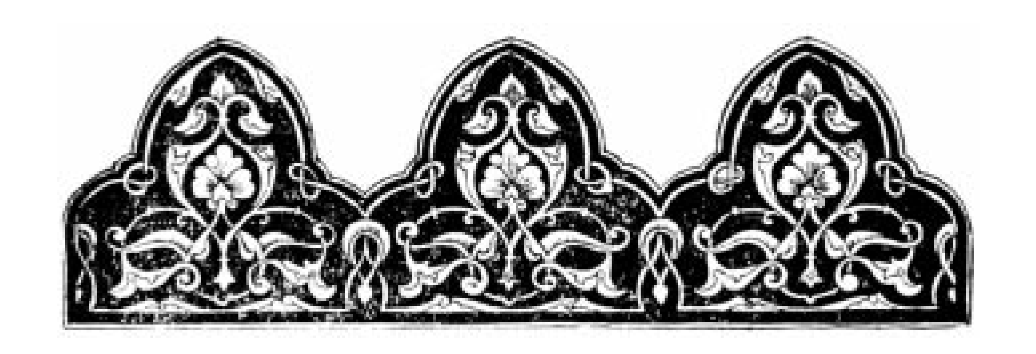


(١) أنظر Th. De la Ronciere: La decouverte de l, Afrique Moyen Age ج٢ ص ٩٦.



[عن بلوشيه]

الإسكندر الأكبر في حديقة، أشجارها من الذهب، وقباب معابدها مغطاة بالذهب ومرصعة بالأحجار الثمينة. صورة من مخطوط فارسى من تاريخ الإسكندر للشاعر نظامى، كتب في القرن الحادى عشر الهجري (١٧م)



ابن سعيد وابن فاطمة

ولد على بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المغربى في غرناطة حول سنة ٦١٠هـ (١٢١٤م). وتلقى العلم في إشبيلية، ثم أدى فريضة الحج مع أبيه؛ ولكن أباه توفى في طريقهما للعودة إلى أرض الوطن سنة ٦٣٩هـ وأقام الابن في الإسكندرية بضع سنوات؛ ثم قام برحلات طويلة في العراق والشام والحجاز وتونس وأرمينية؛ واتصل ببعض أمراء المسلمين وعلمائهم. وتوفى في الربع الأخير من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي).

وقد دون ابن سعيد أخبار بعض رحلاته. وأفاد من مشاهداته فيما ألف من كتب التاريخ. وقد خلف تواليف كثيرة معظمها مخطوط إلى الآن، فلم يطبع إلا بعضها وأجزاء من البعض الآخر، ولا سيما من كتاب «المغرب في حلى المغرب» وهو كتاب كبير أتم ابن سعيد تأليفه بعد أن بدأه أبوه وجده من قبله.

وأكبر الظن أن ابن سعيد جال في غربي إفريقية، ورأى مصب نهر السنغال. أو لعله نقل ما كتبه في هذا الصدد عن الرحالة ابن فاطمة، الذى

قام برحلة بحرية جنوبى مـراكش، وغرقت السفينة التى كان فـيها عند الرأس الأبيض (جنوبى المستعـمرة الإسبانية التـى تعرف الآن باسم ساحل الذهب)، بعد أن توغل عند الأوروبيين حينذاك[١].

والظاهر أن ابن فاطمة قام بأسفار طويلة في أفـريقية. ولعله كتب أخبار هذه الرحلات؛ ولكن شيئًـا من آثاره لم يصل إلينا ما خلا الذى نقله عنه ابن سعيد، حين أشار إليه في أكثر من موضع واحد.

* * *

ومن طريف ما خلفـه ابن سعيد وصف للقاهرة والفـسطاط نقله المقرى في كتـابه «نفخ الطيب». وقد جـاء في هذا الوصف: «قال ابن سعـيد: ولما استـقررت بالقـاهرة تشوقـت إلى معايـنة الفسطاط، فـسار مـعى إليهـا أحد أصحاب القرية، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير إلى الفسطاط حملة عظيمة، لا عهد لى بمـثلها في بلد. فركب منها حمارًا وأشار إلى أن أركب حمـارًا آخر، فأنفت من ذلك، على عادة من أخلفـته في بلاد المغرب. فأخبرنى أنه غير معيب على أعيان مصر، وعاينت الفقهاء وأصحاب البزة والشارة الظاهرة يركـبونها فركبت. وعندما استـويت راكبًا أشار المكارى إلى الحمـار فطار بى، وأثار من الغبـار الأسود مـا أعمى عينى ودنـس ثيابي وعاينت ما كرهته. ولقلة معرفـتى بركوب الحمار، وشدة عدوه على قانون لـم أعهـده، وقلة رفق المكارى، وقعت في تلك الظلمـة المثارة من ذلك العـجاج فقلت:

---

(١) راجع Ch. De la Ronciere: La decouvetr de l,Afique au Moyen Age ج١ ص٢٣ و ٤٨ - ٤٩و ٨٠.

لقيت بمصـــر أشــــد البوار   ركوب الحـــمير وكحـل الغبار

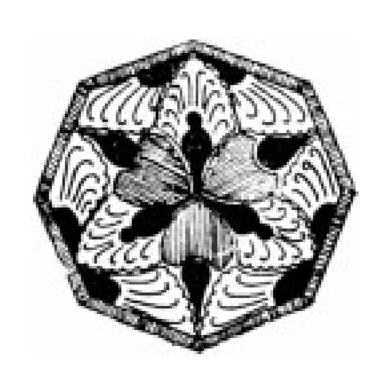
وخلفى مكارٍ يفوق الرياح   لا يعرف الرفق مهـما استـطار

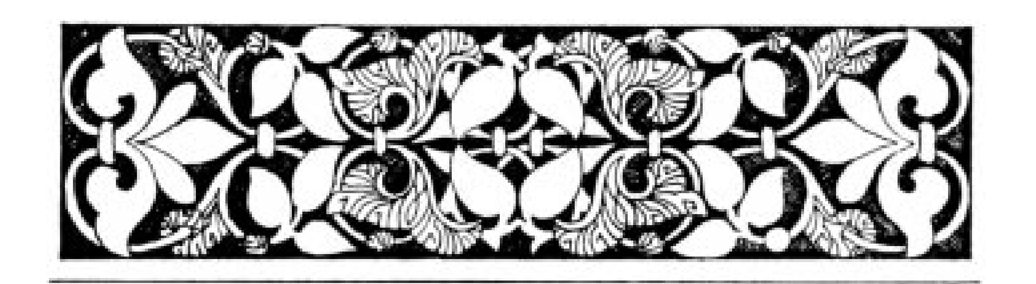
أناديه مهــلا فلا يرعــوى   إلى أن سجدت سجود العثار

فدفعت إلى المكارى أجرته، وقلت له: إحـسانك أن تتركني أمشى على رجلى، ومـشيت إلى أن بلغـتهـا. . . ولما أقبلت على الفـسطاط أدبرت عنى المسرة، وتأملت أسوارًا مـثلمة سوداء، وآفاقًا مغـبرة، ودخلت من بابها وهو دون غلق، يفضى إلى خـراب مغمور بمبـان مشتـتة الوضع، غير مـستقيـمة الشوارع، وقد بنيت من الطـوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فـوق طبقة، وحـول أبوابها من التـراب الأسود والأزبال مـا يقـبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف. فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال، إلى أن صرت في أسواقها الضيقة، فقـاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والروايا التى على الجمال ما لا تفى به إلا مشاهدته ومـقاساته، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع، فـعاينت مـن ضيق الأسواق الـتى حوله مـا ذكرت ضده في جـامع إشبيلية وجامع مـراكش؛ ثم دخلت إليه فعاينت جامعًا كبـيرًا قديم البناء غير مزخرف ولا مـحتفل في حصـره التى تدور مع بعض حياطانه وتنبـسط فيه. وأبصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبرًا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق. والبياعـون يبيعون فيه أصناف المسكرات والكعك وما سوى ذلك. والناس يـأكلون في عدة أمكنة منه غير متـحشمين لجرى العـادة عندهم بذلك. وعـدة صبيـان بأوانى ماء يطوفـون على كل من يأكل قـد جعلوا مـا يحصل لهم منه رزقًـا. وفضـلات مأكلهم مطروحـة في صحن الجـامع، وفي زواياه العنكبوت قـد عظم نسجه في السـقف والأركان والحيطان والصـبيـان يلعبون في صـحنه، وحيطانه مكتـوبة بالفحم والحـمرة بخطوط قبيحة مختلفة. . .

وأمـا ما يرد إلى الفـسطاط من مـتاجـر البـحر الإسكـندرانى والبحـر الحجازي فإنه فوق ما يوصف، وبه مجمع ذلك لا بالقاهرة، ومنها يجهز إلى القاهرة وسائر البـلاد. وبالقسطاط مطابخ السكر والصابون ومـعظم ما يجرى هذا المجرى. .

والمكان المعروف بالقاهرة بين القـصرين هو من الترتيب السلطاني؛ لأن هنالك ساحة متسعة للعسكر والمتـفرجين ما بين القصرين. ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمـة القدر. . . ولكن ذلك أمد قليل، ثم تسير منه إلى أمد أضيق وتمر في مكان كدر حرج بين الدكـاكين، إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان مما تضيق به الصدور وتسخن منه العيون، ولقد عاينت يومًا وزير الدولى وبين يديه الأمراء وهو في مـوكب جليل، وقد لقى في طريقـه عجلة بقر تحمل حجارة، وقد سدت جميع الطرق بين الدكاكين ووقف الوزير وعظم الازدحام، وكان فـي موضع طباخين، والدخان في وجـه الوزير وعلى ثيابه. وقد كاد يهلك المشاة، وكدت أهلك في جملتهم».





القزوينى

ولد زكريا بن محمد القزوينى حول سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٣م) في مدينة قزوين بالعراق العجمى. وطاف في إيران والعراق والشام. وتولى قضاء مدينتى واسط والحلة. وتوفى سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م). وقد خلف كتابين كبيرين: الأول في الفلك والجغرافية الطبيعية عند العرب ويسمى «عجائب المخلوقات» ولا ريب في أنه أجل ما أنتجه في هذا الميدان علماء العصور الوسطى قاطبة؛ والثانى في التاريخ وتقويم البلدان وما يتصل بهما، ويسمى «آثار البلاد وأخبار العباد».

وفي الكتاب الثاني ذكر بعض البلاد الفرنسية والألمانية والهولندية مثل ايطرخت Utrecht وأبولده Fulda ومغانجة Mainz وشلشويق Schleswig وواطربورونة Paderborn. والمعروف أن القزوينى اتصل بكثير من الرحالة، وقرأ آثارهم، وأفاد من مشاهداتهم. فنقل عن أبي الربيع سليمان الملتاني الرحالة الذي نفذ إلى وسط إفريقية، وعن إبراهيم الطرطوشي الأندلسي وأحمد بن عمر العذري اللذين توفيا حول سنة ٤٧٧هـ (١٠٨٥م) بعد أن أتيح لهما رؤية بعض المدن في فرنسا وأوروبا الوسطي.



[عن سكسيان]

السكان البيض والسكان السود

صورة في مخطوط من الترجمة الفارسية لكتاب «عجائب المخلوقات» للقزوينى

ويرجع المخطوط إلى القرن التاسع أو العاشر الهجري (١٥-١٦م)



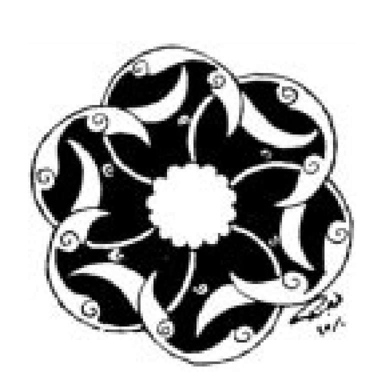
[عن ساكسيان]

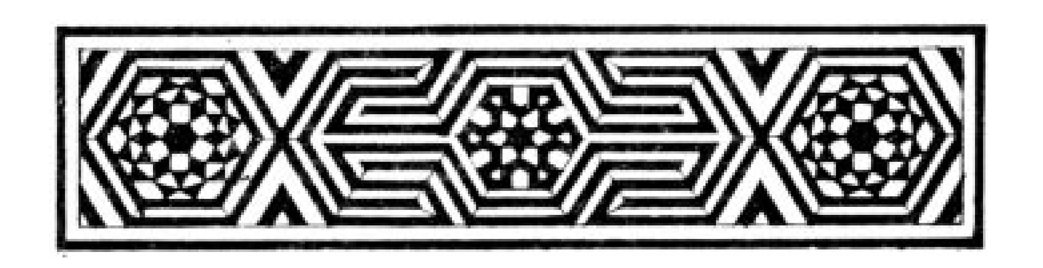
شجرة واق واق والملكة عرجون

صورة في مخطوط من الترجمة الفارسية لكتاب «عجائب المخلوقات» للقزويني. ويرجع المخطوط إلى القرن التاسع أو العاشر الهجري (١٥-١٦م)

ومما نقله القزويني عن الطرطوشي حديث مدينة النساء، وقد أشار إليه الدكتور حسين فوزي في الفصل الذي عقده للكلام على جزائر النساء في كتابه «حديث السندباد القديم». نقل القزويني عن الطرطوشي أن مدينة النساء مدينة كبيرة واسعة الرقعة في جزيرة من جزائر بحر المغرب، أهلها نساء لا حكم للرجال عليهن، يركبن الخيل ويباشرن الحرب بأنفسهن ذوات بأس شديد عند اللقاء؛ ولهن مماليك يختلف كل مملوك إلى سيدته، ويقوم بالسحر ليخرج مستترا قبل انبلاج الصبح فإذا وضعت إحداهن ذكرا وِأدته في الحال».

وقد كتب المستشرق الألماني جاكوب C.jacob عدة أبحاث عما ذكره القزويني من البلاد الأوروبية وعن العلاقات التجارية بين المسلمين وسكان أوروبا الوسطى والشمالية.



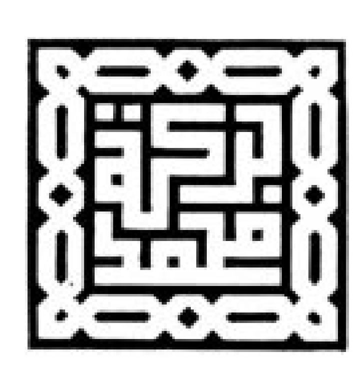


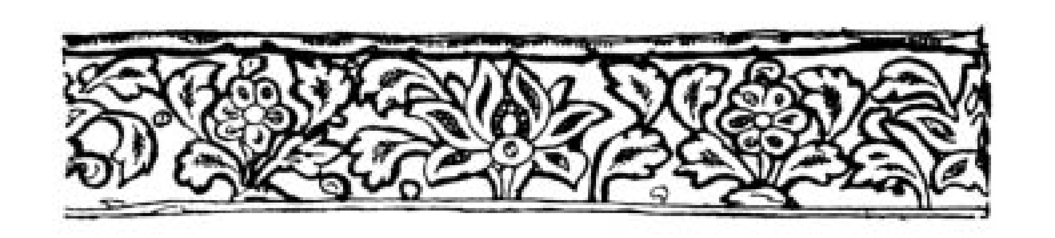
العبدري

هو محمد بن محمد بن على العبدري نسبة إلى جده الأعلى عبد الدار ابن قصي القرشي. أصله من بلنسية. ولسنا نعرف من سيرة حياته شيئا كثيرا. ولكن الثابت أنه كان على مقربة من الصويرة (مغادورMogador) في المغرب الأقصى حين سافر لتأدية فريضة الحج سنة ٦٨٨هـ (١٢٨٩م). واتخذ العبدري في رحلته طريق إفريقية الشمالي إلى الإسكندرية، ومنها بالطريق البري إلى مكة، وأقام بعد الحج فترة من الزمن بفلسطين، ثم قفل معرجا على الإسكندرية. ودوَن أخبار رحلته، وأشار فيها إلى مواطنه ابن جبير. وقد وصلت إلينا بضع مخطوطات من هذه الرحلة محفوظة في خزانات متفرقة. ونشر منها المستشرق الفرنسي شاربونو Charbonneau بعض مقتطفات في المجلة الآسيوية الفرنسية (ج٤ من الحلقة الخامسة).

وعني العبدري في رحلته ببيان المواقع الجغرافية، وذكر المعالم الأثرية، ودراسة العادات في البلاد التي مر بها، فضلا عن الكلام على أعلام الفقهاء المسلمين في عصره. ومما عرض له شدة ما يلقاه القادمون إلى ثغر الإسكندرية من قسوة مفتشي المكوس. فقد كتب في هذا الصدد: «ومن الأمر المستغرب والحال الذي أفصح عن قلة دينهم أنهم يعترضون الحجاج، ويجرعونهم من

بحر الإهانة الملح الأجاج. ويـأخذون على وفدهم الطرق والفجاج، يبـحثون عما بأيديهم من مال، ويأمرون بتفـتيش النساء والرجال. وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهـم ما اشتـد له عجبي، وجـعل الانفصال عـنهم غاية أربى. وذلك لما وصل إليها الركب جاءت شرذمة من الحرس، لا حرس الله مهجتهم الخسيسـة، ولا أعدم منهم لأسد الآفات فريسة، فـمدوا في الحجاج أيديهم، وفتـشوا الرجال والنسـاء، وألزموهم أنواعا من المظـالم، وأذاقوهم ألوانا من الهـوان، ثم استـحلفوهم وراء ذلك كله، ومـا رأيت هذه العادة الـذميـمة، والشيمة اللئيمة في بلد من البلاد، ولا رأيت في الناس أقسى قلوبا، ولا أقل حياء ومروءة، ولا أكثر إعراضا عن الله، سبحانه، وجفاء لأهل دينه من أهل هذا البلد».

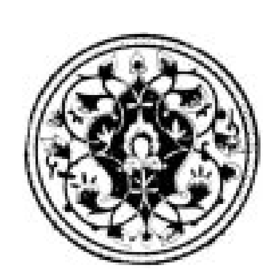




البلوى

هو القاضي أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي غادر الأندلس سنة ٧٣٦هـ (١٣٣٥م) في رحلة إلى الأقطار الحجاز لتـأدية الفريضة وزيارة بعض الأقطار الإسـلاميـة. فـمر بتـونس والإسكندرية والقـاهرة وأقـام بعض الوقت بيت المقدس. ورافق منها ركب الحـاج السوري إلى الحجاز. ثم دوّن أخـبار رحلته في كتـاب سمـاه «تاج المفرق في تحليـة علماء المشـرق» فرغ من تأليـفه سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٥م) وقد وصلت إلينا نسخ مخطوطة منه، لا تزال محفوظة في بعض الخزانات العامة.

وعني البلوي في أخبار رحلته بوصف البلاد التي مر بها، والإشارة إلى آثارها وذكر علمائهـا وأدبائها مع نبذ من أشعارهم ونثرهم. ولكنه نـقل كثيرا عن غيره من المؤلفين والرحالة، ولا سيما عن ابن جبير؛ فقد أخذ عنه وصف الإسكندرية والقاهرة ومكـة والمدينة. بل إن معاصـره لسان الدين بن الخطيب صاحب كـتاب «الإحـاطة في أخبـار غرناطة» فطن لهـذا العيب في تأليـفه، فكتب عنه في الكتاب المذكـور: «حج وقيدً رحلته في سفر وصف فـيه البلاد ومن لقيه بفصول جلب أكثرها من كلام الاصبهاني وصفوان وغيرها».





ابن بطوطة

هو أعظم الرحالة المسلمين قاطبة، وأكثرهم طوافا في الآفاق، وأوفرهم نشاطا واستيعابا للأخبار، وأشدهم عنـاية بالتحدث عن الحالة الاجتماعية في البلاد التي تجول فيها. حقًّا إنـه لم يكن فقيها دقيق الملاحظة سليم الحكم مثل ابن حـجر؛ ولكن حـديث رحـلاته الطويلة غني بالأحـداث، يشع الحيـاة، ويشهد بأن ابن بطوطة كان من المغـامرين الذين لا يقر لهم قرار، ومن الذين يدفعهم حب الاستطلاع والرغبة في الاستـمتاع بالحياة إلى أن يركبوا الصعب من الأمور.

ولد محمد بن بطوطة في مدينة طنجة سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٤م) من أسرة عالية، أتيح لكثير من أبنائها الوصول إلى منصب والنبوغ في العلوم الشرعية. غادر وطنه سنة ٧٢٥هـ لأداء فـريضة الحج؛ ولكنه ظل حول ثمانيـة وعشرين سنة في أسفار متصلة ورحـلات متعاقبة. وألقى أخيرا عـصى التسيار بما كان فيه ابن بطوطة يقصه من أحاديث أسفاره، فـأمر كاتبه محمد بن جزى الكلبي أن يدون ما يمـليه عليه هذا الرحـالة. وتولى ابن جزي كـاتب السلطان رواية الرحلة وتلخيصها وترتيبها وإضافـة بعض الأشعار إليها وتحقيق بعض أجزائها مستعينا بكتب الرحلات المعروفة في ذلك العصر، ولا سيما رحلة ابن جبير.

ثم سماها «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وفرغ منها سنة ٧٥٧هـ (١٣٥٦م) وختمها بعبارة أجزل فيها الثناء على بن بطوطة، ولم ينس مـولاه السلطان، فافـتخـر بأن ذاك الرحالة اخـتار الاسـتقـرار في دياره دون غيرها.

قال ابن جزى: «انتهى مـا لخصته من تقييد الشيخ أبي عـبد الله محمد ابن بطوطة أكـرمه الله. ولا يخـفى على ذي عـقل أن هذا الشيخ هو رحـال العصر. ومن قـال رحال هذه الملة لم يبعد. ولم يجـعل بلاد الدنيا للرحلة. واتخذ حضرة فاس قرارا ومسـتوطنا بعد طول جولاته، إلا لما تحقق أن مولانا أيده الله أعظم ملوكها شأنا، وأتمهم بما ينتمي إلى طلب العلم حماية. فيجب على مثلي أن يحـمد الله تعالى؛ لأن وفـقه في أول حاله وترحاله لاسـتيطان هذه الحضرة، التي هذا الشيخ بعد رحلة خمسة وعشرين عاما».

* * *

وقد طبعت رحلة ابن بطوطة في باريس مع ترجمـة فرنسية في منتصف القرن الماضي على يد المستشرقين ديفريمري Defremery وسانجنتي Sanguinetti وطبعت في القـاهرة طبعتين عـربيتين ونشر الأسـتاذ جب Gibb ملخصـا لها بالإنجليزية في سلسة Broadway Travellers سنة ١٩٢٩ قدم له بتصدير طيب تحدث فيه عن الرحالة وعصره.

ولعل بعض الاضطراب فـي أخبـار ابن بطوطـة يرجع إلى أنه لم يدون رحلته بنفسه، وان ابن جزيّ عدل في بعض أخبـارها وغير فيـها بالحذف أو الإضافة، بعد أن راجع طائفة من كـتب الأسفار الأخرى، حتى جاءت بعض الأخبار بعيـدة عن الدقة، ولا سيما أحاديث ابن بطوطة عن الـصين. فاتهمه بعض النقاد بأنه لم يصل إلى تلك البلاد كـما زعم في رحلته. ولكنا لا نميل

إلى تأييد هذا الاتهام كل التأييد؛ لأن معظم تلك الأحـاديث يدعمها ما نعرفه عن رحلة ماركو بولو، الذي زار الصين أيضا، ومكث فيهـا حول سبعة عشر عاما، ثم أملى أخبار رحلته على كاتب آخر، وتوفى قبل أن يقوم ابن بطوطة برحلته الأولى بسنة واحدة.

وقد أشار الدكتور حسين فوزي في كتابه «حديث السندباد القديم» (ص ١٨٨- ١١٩) إلى قـصة نزول ابن بطوطة ببـلاد طوالسي في المحيط الـهادي ولاحظ أن وصفه تلك البلاد - ولا سيـما نسائها - ذو صلة بأسطورة جزيرة النساء وأسطورة الوقواق. وقال إن تلك القـصة من الحكايات التي دعت كثيرا إلى التشكـك من سفر ابن بطوطة إلـى بلاد الصين وأنه ليس ببعـيد أن يكون حديثه عن «أودجا» ملكة تلك البلاد «نوعا من السطو البري على قصة علقت بذهن ابن بطوطة من مطالعـاته عن البلاد التي في شـرق الصين ونسبـها إلى نفسه».

وفي رأينا أن هذه القصة وغيرها من القـصص الغريبة فد تحملنا على أن نشك غي صحـة بعض ما نسبـه ابن بطوطة إلى نفســه؛ ولكنها لا تكفي لأن نشك في صحة سفره إلى تلك البلاد. والحق أن ما كتبه عن الصين يبدو قائما على أسس من المشاهدات الشخصية ويجب ألا ننسى في هذه المناسبة أن مثل هذه الرحالة إلى الصين كانت أمـرا ميسورا لابن بطوطة بوصفه سـفير سلطان دلهي. وإذا كان حـديثه عنها بعـيدا عن الإسهاب والإطـالة فلعل السبب في ذلك أنه لم يكن يسـتطيع أن يتذكر السـماء الصـينية أو أن ابن جزى مـحرر الرحلة أمعن في اختصاره لسبب من الأسباب.

ومهـما يكن من الأمر فـإننا نشعر حين نقـرأ رحلة ابن بطوطة أن ثمت أجزاء يغلب عليـها طابع المبالغـة، ونرجح أن الرحالة خصب الخيـال وأنه قد

يكون مصداقا للمثل المشهور في بعض اللغات الأوروبية ("A beau mentir qui vient de join” ومعناه أن القادمين من البلاد البعيدة لهم أنت يختلفوا ما شاؤا، إذ لا رقيب عليهم. ولكن ليس فذ هذا ما ينقص من شأن ابن بطوطة ورحلته. وحسبنا أن نتبعها مرحلة مرحلة، لنقف عند بعض أجزائها الطريفة، مما يصف ظاهرة اجتماعية غريبة أو يثبت وجود نظم نظن أنها من مستحدثات العصر الحاضر.

***

غادرا ابن بطوطة بلاد المغرب الأقصى إلى الأراضي الحجازية فمر ببلاد الجزائر وتونس وطرابلس. والظاهر أن هذا الطريق البري لم يكن أمينا كل الأمن؛ فقد علم الرحالة من صديق له بضرورة الإسراع في السير خوف غارة العرب في الطريق؛ وحدث بعد ذلك أن أرادت طوائف الأعراب الإيقاع بالركب قبل الوصول إلى الحدود المصرية. وحرص ابن بطوطجة على أن يحدثنا عن بعض شؤونه الخاصة في هذه المرحلة الخاصة في هذه المرحلة فأملى ما يأتي: «ووقع بيني وبين صهري مشاجرة أوجبت فراق بنته، وتزوجت بنتا لبعض الطلبة فاس وبنيت بها بقصر الزعافية، وأولمت وليمة حبست لها الركب يوما وأطعمتهم».

ثم وصل إلى الإسكندرية ووصفها وصفا موجزا ولا سيما المنار وعمود السواري؛ وتحدث بشيء من الإسهاب عمن زارهم من علمائها، ومنهم الإمام الزاهد برهان الدين الأعرج الذي توسم فيه حب الرحلة والأسفار، فأوصاه إذا ذهب إلى الهند أو الصين أن يزور إخوانا سماهم له. وشجع ذلك ابن بطوطة على التفكير في التوجه إلى تلك البلاد القاصية. على أننا لا نشك في أنه لم يكن منذ البداية يقصد الحج فحسب، بل كان يزمع التجول في العالم

الإسلامي، كما يظهر من قـضائه عدة شهور في الطريق إلى الإسكندرية ومن تعريجه على مدن في الدلتا بعيدة عن الطريق العادي إلى القاهرة.

ومن طريف ما ذكره ابن بطـوطه عن مدينة دمياط أنها كـانت مسورة، وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلـى الخروج منها إلا بإذن الوالي؛ فمن كان في الناس معتـبرا أعطاه رجال الإدارة الإذن على ورق مخـتوم بطابع الوالي، أما طالب الخروج من عـامة الناس فكانوا يطبعون علـى ذراعه بخاتم الوالي، فيسمح له حراس باب المدينة بمبارحتها عند رؤية هذا الختم.

ثم وصف ابن بطوطة القاهرة والفسطاط (مصر) فذكر المساجد والمدارس والمسـتشـفيـات والقـرافة والنيل والأهرام، وقـال عن هذه إنهـا بنيت لتكون مـستـودعا للعلوم ولجـثث الملوك. وتحدث عـن السلطان الناصر مـحمـد بن قلاوون وعن بعض كبار الأمراء والعلماء في دولتـه، ووصف الاحتفال بسفر المحمل. وقال إن بنيل مصر من المراكب سـتة وثلاثين ألفا للسلطان والرعية، تمر صاعـدة إلى الصعـيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمـياط بأنواع الخـيرات والمرافق، وأن «الروضـة» كانت حـينئذ مكان النزهة والتـفرج وبهـا البسـاتين الكثيرة الحـسنة، وأن أهل مصر ذو طرب وسرور ولهو، وأنه شـاهد بها مرة فرجة - بسـبب برء الملك الناصر من كسر أصـاب يده - فزين كل أهل سوق سوقهم وبقوا على ذلك أياما.

وسافر الرحالة من القاهرة إلى عيـذاب؛ ولكنه لم يستطع أن يعبر البحر منها؛ لأنه وجـد أميـرها الحدر بي زعيم البـجاة قد ثار علـى مولاه السلطان الناصر المملوكي، وأقبل على مطاردة جنوده الممـاليك، وأتلف المراكب فتعذر السفر في البحر. وعـاد ابن بطوطة إلى الفسطاط، ثم رحل عنها إلى فلسطين ولبنان وسـورية؛ على أن يرافق إلى الحـجاز ركـب الحاج الشـامي. ووصف

الطريق الصحـراوي بين مصر وفلسطين وما كـان فيه من محطات ولا سـيما «قطيا» التي كانت تجبي المكوس. قال:

«ثم وصلت إلى الصالحـية، ومنها دخلنا الرمال ونزلهـا منازلها، وبكل منزل منها فندق وهم يسـمونه الخان، ينزله المسافـرون بدوابهم، وبخارج كل خان ساقـية للسبيل وحـانوت يشترى منه المسـافر ما يحتاج إليـه ودابته ومن منازلها «قطيـا» المشهورة، وبهـا تؤخذ الزكاة من التـجار وتفتـيش أمتعـتهم، ويبحث عما لديهم أشـد البحث، وفيها الدواوين والعمـال... ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذين. ولا يجوز عليهـا أحد من الشام إلا ببراءة (إذن أو جواز سـفر) من مصـر ولا إلى مصر إلا ببـراءة من الشام، احتـياطا على أموال الناس، وتوقيا من الجواسيس العراقيين. وطريقها في ضمان العرب وقد وكلوا بحفظـه، فإذا كان الليل مـسحوا على الرمل لا يبـقي به أثر، ثم يأتي الأمير صباحا فينظر إلى الرمل، فإن وجد به أثرا طالب العرب بإحضار مؤثره فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم، فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء».

***

وتنقل ابن بطوطة بين مـدن فلسطين والشام تنقـلا يبدو غيـر منتظم في أخـبار رحلتـه. ومهـما يكن مـن الأمر، فـإنه وصف غزة وبيت المقـدس، وأعجب بقبـة الصخرة وتحدث عن فضلاء القـدس، وانتقل إلى وصف صور وطرابلس الشام وحلب، وسرد بعض القصص التي تتصل بالنزاع بين السلطان الناصر محـمد بن قلاوون ودولة إيلخانـات المغول بالعراق وما تبـعه من فرار الأمير قراسنقر نائب حلب إلى إيلخان المغول.

وأسهب ابن بطوطة في الكلام على دمـشق، فوصف مسجـدها الجامع وصفا دقيقا، وتحدث عن حلقات التدريس فيه. ومن أطراف ما كتبه عنها ذكر

ما بها من أوقاف لمختلف الشؤون الاجتماعية «منها أوقاف تجهيز البنات إلى أزواجهن، وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن؛ ومنها أوقاف لفكاك الأسارى؛ ومنها أوقاف لأبناء السبيل، يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم؛ ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليهما المترجلون، ويمر الركبان بين ذلك؛ ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير» وسرد ابن بطوطة قصة طريفة في هذا الصدد. قال: «مررت يوما ببعض أزقة دمشق، فرأيت به مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صفحة من الفخار الصيني، وهم يسمونها الصحن، فتكسرت، واجتمع الناس، فقال له بعضهم «اجمع شفقها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني» فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن. وهذا من أحسن الأعمال، فإن سيد الغلام لا بد له أن يضر به على كسر الصحن أو ينهره، وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير جل ذلك. فكان هذا الوقف جبرا للقلوب».

وطبيعي أن يعني ابن بطوطة بالكلام على ما يلقاه مواطنوه المغاربة من كرم الوفادة في دمشق فأشار إلى أن أهلها يحسنون الظن بالمغاربة ويعهدون إليهم في شتى الأعمال، فلا يحتاج غريب إلى بذل وجهه في السؤال «وكل من انقطع بحهة من جهات دمشق لا بد أن يأتي له وجه من المعاش» من إمامة مسجد، أو قراءة بمدرسة، أو ملازمة مسجد يجيء إليه فيه رزقه، أوقراءة القرآن، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجري له النفقة والكسوة. فمن كان بها غريبا على خير لم يزل مصونا عن بذل وجهه محفوظا عما يزري بالمروءة. ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب أخر، من حراسة بستان أو إمامة طاحونة أو كفالة صبيان يغدو معهم

إلى التعليم ويروح ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك».

وأشار ابن بطوطة إلى أن من فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر احد منهم في ليالي رمضان وحده البتة، فمن كان غنيا فإنه يدعو أصحابه والفقراء. أما الفقراء فإنهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم أو فى مسجد ويأتي كل أحد بما عنده فيفطرون جميعا.

وكان ابن بطوطة يعني بالنواحي الاقتصادية في مشاهداته فيذكر أجل ما تختص به المدن التي يزورها من منتجات زراعيبة أو صناعية ولا تفوته الإشارة إلى الطريف منها. ومن ذلك قوله في بعلبك «ويصنع بها أواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد، وهم يسمون الصحائف بالدسوت، وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة أخرى تسع في جوفها أخرى إلى أن يبلغوا العشر، يخيل لرائيها أنها صحفة واحدة. وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرا واحدة في جوف واحدة ويصنعون لها غشاء من جلد»... فليس لنا أن نعجب إذن حين نرى مصانع الغرب في العصر الحاضر تطبق هذه الفكرة في إنتاج بعض أنواع الآنية ومنافض السجاير.

***

أدى ابن بطوطة بعد ذلك فريضة الحج، ووصف مناسكها، وتحدث عن الحجازيين وعاداتهم وأحوالهم الاجتماعية، وأثنى على أهل مكة ومدح ما شاهده فيها من الكرم وحسن الجوار للغرباء، ولاحظ أن نساء مكة «فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف، وهن يكثرون التطيب، حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيبا. وهن يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة فيأتين في أحسن زي، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن، وتذهب المرأة منهن فيبقي أثر الطيب بعد ذهابها عبقا»!!

ثم غادر الحجاز سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٦م) مع الركب العراقي، ولكنه تركه عند النجف، وعرج على واسط والبصرة. وعجب لهذه التي إلى أهلها كانت انتهت رياسة النحو، فلم يبق بها من يعرف شيئا من هذا العلم، حتى الخطيب يلحن في الخطبة لحنا كثيرا جليا.

ولم يشأ ابن بطوطة أن يقفل إلى العراق من الطريق عينها التي دخل منها. وقال في ذلك إن من عادته في سفره ألا يعود على طريق سلكها ما أمكنه ذلك. فزار بعض المدن في غربي إيران مثل تستر وأصبهان وشيراز وكازرون. وأظهر في وصفها ذوقا فنيا وإعجابا بجمال الطبيعة، فضلا عن عنايته المعهودة بالناس وأعيادهم وأحوالهم الاقتصادية والعلمية والاجتماعية؛ ومن ذلك قوله في وصف مدينة اشتركان: «وهي بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين. ولها مسجد بديع يشقه النهر».

ورجع ابن بطوطة إلى العراق فنزل بالكوفة ثم انتقل إلى بغداد وأتيح له أن يرى موكب السلطان أبي سعيد، فوصفه على نحو ما وصف القلقشندي مواكب الفاطميين والأيوبيين والمماليك في مصر.

* * *

وقام ابن بطوطة برحلات من بغداد إلى تبريز والموصل ونصيبين وسنجار وماردين؛ ثم رافق ركب الحاج العراقي إلى الحجاز فأدى الفريضة ثانية؛ وأقام يدرس بمكة سنة كاملة. ثم حج مرة ثالثة؛ وركب البحر إلى اليمن مارا بسواكن وأشار إلى أن البحر في هذه المنطقة لا يسافر فيه ليلا لكثرة أحجاره، وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها ويرسون وينزلون إلى البر. فإذا كان الصباح صعدوا إلى المركب.

وزار الرحالة زبيد، وقال إنها أملح بلاد اليمن وأجملها، وليس في تلك البلاد بعد صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها. وأعجب بجمال نسائها وبقبولهن تزوج الغرباء. وغادرها إلى صنعاء وذكر أن أرضها مبلطة فإذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاتها. وطبيعي أن يلاحظ ابن بطوطة - وهو الناشئ في إقليم البحر الأبيض المتوسط حيث يهطل المطر شتاء - أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة إنما ينزل في أيام القيظ.

وقابل الرحالة سلطان اليمن في صنعاء ووصف بلاطه وترتيب الطعام فيه ثم أضاف: «وعلى مثل هذا الترتيب ملك الهند في طعامه؛ فلا أعلم أسلاطين الهند أخذوا ذلك عن سلاطين اليمن، أم سلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند».

وسافر ابن بطوطة إلى عدن وأشار في وصفها إلى ثروة التجار فيها ثم عبر البحر إلى زيلغ بالصومال الإنجليزي الحالي، ووصفها بأنها أقذر مدينة في المعمور وأوحشها وأكثرها نتنا «حتى أنه اختار المبيت بالبحر على شدة هوله ولم يبت بها لقذرها» وسافر بعدها إلى مقدشو عاصمة تلك البلاد (وهي تقع على ساحل المحيط الهندي). ونزل بأمر السلطان في دار الطلبة، وهي معدة لضيافة أهل العلم. وغادرها إلى جزيرة منبسي ثم إلى كلوا على ساحل أفريقية الشرقي جنوبي خط الاستواء، وأهلها من الزنوج. وقال الرحالة عن المسلمين منهم إنهم «أهل جهاد، لأنهم في بر واحد متصل مع كفار الزنوج».

وعاد ابن بطوطة إلى بلاد العرب طائفا حول سواحلها الجنوبية والشرقية ومارا بمدينة ظفار. وعجب لأنه رأى الدواب والغنم فيها بسمك السردين، وتحدث عن تجارها مع الهند وعن سلطانها. ثم مر بهرمز وسيراف والبحرين؛ ووصف الغواصين على الجوهر، وعبر الخليج الفارسي إلى القطيف في إقليم

اليمـامة، وانحدر منهـا إلى مكة فأدى الفـريضة مرة أخـرى وشاهد السلطان الناصر محمد يحج ومعه طائفة من الأمراء والمماليك.

وأراد ابن بطوطة أن يبحر إلى اليمن والهند ولكنه لم يجد في ثغر جدة مركبا أو رفيقا إلى الجنوب فرجع إلى مصر. وسافر منها إلى الشام على طريق بليس. ووصل إلى اللاذقيـة. وركب منها البحر إلى إلى العـلايا في الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى، وكانت حينئذ مشتى الروم السلاجقة.

وطاف الرحالة في كثـير من بلاد الأناضول؛ فوصف أحوالها السـياسية قـبل أن تصـبح دولة واحـدة على يد العـثـمانيين. كـمـا تحـدث عن آثارها وصناعاتها وعادات أهلها، ولا سيما نظام جماعات الإخوان أو الفتيان. وهي جـماعـات تضم الشـبان العـزباء أبناء الطائفـة الواحـدة أو القرية الواحـدة، فيقدمون عليهم رئيسا لهم ويتخذون مقرا لجمعيتهم ويتعاونون على البر وإكرام الضيف الغـريب ويشتركون في الطعـام وفي الغناء وفي الرقص وما إلى ذلك من اللهو البرئ. ونظامهم يتصل بنظام الفـتوة الإسلام. وقد ذكر ابن بطوطة أن فتيان مدينة قونية «لهم في الفتوة سند يتصل إلى أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام. ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة».

وأبحـر الرحالة إلى شـبه جـزيرة القرم من ثغـر صنوب شمـالي آسـيا الصغرى، ونزل بمرسـي «الكرش». ثم انتقل إلى تغر كافا، وأكـثر سكانه من أهل جنوة، جعلوه من أهم مراكز التجـارة وأكبر أسواق الرقيق. ورحل عنها إلى مدينة القرم. وكانت تابعة للسلطان مـحمد أوزبك، خان المغول المعروفين بالقبيلة الذهبية. وغادر القرم إلى أزاق وأشار إلى كثرة الخيل بتلك البلاد وإلى أن ثمنها زهيد فينقل التجار ألوفا منها الهند ويغنمون الأرباح الطائلة.

وانتقل إلى مدينة الماجر بالقوقاز حيث لقي يهوديا كلمه بالعربية وظهر أنه من الأندلس، وأنه قدم إلى القوقاز بطريق البر الأوروبي، وأنم رحلته استغرقت حول أربعة أشهر، وعلم ابن بطوطة صحة ذلك من بعض التجار الآخرين ممن لهم المعرفة في هذا الشأن. وأعجب الرحالة بتعظيم النساء في تلك البلاد حتى قال «وهن أعلى شأنا من الرجال» ووصف بعض مواكبهن ولاحظ أنهن لا يحتجبن «وربما كان مع المرأة منهن زوجها، فيظنه من يراه بعض خدمها».

وتحدث ابن بطوطة عن السلطان محمد أوزبك وزار معسكره على أربعة أيام من مدينة الماجر في موضع يقال له «بش دغ». وكان هذا المعسكر مدينة عظيمة متنقلة «فيها المساجد والأسواق ودخان المطبخ صاعد في الهواء. وهم يطبخون في حال رحيلهم والعربات تجرها الخيل بهم» فإذا بلغوا المكان الذي يريدون المقام فيه، انزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الأرض. وقد أفاض ابن بطوطة في الكلام على مواكب خواتينه أو نسائه الأربع.

وذكر الرحالة أن هذا السلطان أوفد معه دليلا لتوصيله إلى مدينة بلغار على الشاطئ الأيسر لنهر اتل (الفولجا). وقد مر بنا ذكرها في الكلام على ابن فضلان. وأراد ابن بطوطة أن يجاوز هذه المدينة إلى الشمال لزيارة أرض الظلمة (سيبريا وشمالي روسيا) وبينها وبين مدينة بلغار أربعون يوما؛ ولكنه لم يفعل، فقال في رحلته: «ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤونة فيه وقلة الجدوى. والسفر إليها لا يكون إلا في عجلات صغار، تجرها كلاب كبار، فإن تلك المفازة فيها الجليد، فلا تثبت قدمالآدمي ولا حافر الدابة فيها. والكلاب لها الأظفار فتثبت أقدامها في الجليد. ولا يدخلها إلا الأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة أو نحوها، موقرة بطعامه وشرابه

وحطبه، فـإنها لا شجر فـيها ولا حجـر ولا مدر. والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذي سار فيـها مرارا كثيـرة. وتنتهي قيمتـه إلى ألف دينار ونحوها. وتربط العربة إلى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب. ويكون هو المقدم وتتبعه سائر الكلاب بالعربات، فـإذا وقف وقفت... فإذا كملت للمسـافرين الفلاة أربعون مـرحلة نزلوا عند الظلمـة وترك كل واحد منهم مـا جاء به من المـتاع هنالك، وعادوا إلى منزلهم المعـتاد. فإذا كان من الغد عـادوا لتفقد مـتاعهم, فيجدون بـإزالة من السمور والسنجاب والقاقم. فإن أرضى صـاحب المتاع ما وجـده إزاء من متـاعه أخـذه، وإن لم يرضه تركـه فيـزيدونه. وربما رفعـوا متاعهم، أعنى أهل الظلمة، وتركوا أمـتاع التجار، وهكذا بيعهم وشراؤهم. ولا يعلم الذين يتوجهون إلى هنالك من يبايعهم... والقاقم هو أحسن أنواع الفراء، وتساوي الفروة منه ببـلاد الهند ألف دينار.. وهي شديدة البياض من جلد حيـوان صغـير في طول الشـبر وذنبه طـويل، يتركونه في الـفروة على حاله. والسمور دون ذلك. تساوي الفروة منه أربعمائة دينار فما دونها».

وطبيعي أن ما يـذكره ابن بطوطة في هذا العبارة مصدره مـا سمعه من التجار عن تلك البلاد الشماليـة. ولا ريب في أن قصة تبادل التجارة من دون رؤية أهل تلك البـلاد تبدو خيـالية إلى حـد كبيـر، ومع ذلك فقـد قرأنا أن الأوروبيين عرفـوا مثل هذا الأسلوب التجـاري مع الهنود الحمـر في أمريكا، كما عرفه القرطاجنيون مع بعض الأمم في العصور القديمة وعرفه الأحباش مع بعض القبائل الإفريقية في القرن السادس الميلادي[١].

***

(١) راجع Ch. De la Ronciere:La Decouverte de L, Afrique au Moyen Age ج١ ص ٩٥ - ٩٦.

عاد ابن بطوطة إلى بــلاط أوزبك خان في القوقــاز وأتيح له أن يغادره إلى القسطنطينيــة في رفقة الخاتون بيلون زوجة هذا السلطان، وكــانت تقصد زيارة أبيها مــلك الروم «لتضع حملها عنده». وكــانت هذه الرحلة بطريق البر في جزيرة البلقان. ولقى الرحالة من رعاية قيصر القسطنطينية ما عتاد أن يلقاه من سلاطين المسلمين. وذكر أنهم فـتشوه قبل الدخول على الإمــبراطور «لئلا يكون معــه سكين» وأنه في البلاط ترجمــان يهودي يتكلم العــربية واصله من بلاد الشــام. وقد خلع الملك على ابن بطوطة وأمــر له بفرس. والغــريب أن الذي يلبس خلعــة الملك ويركب فرسا من هداياه يطاف بــه في أسواق المدينة بالأبواق والطبول، ليراه الناس. وعلق ابن بطوطة على ذلك بقوله: «وأكثر ما يفعل ذلك بالأتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أوزبك، لئلا يؤذوا».

وشاهد الرحــالة آثار القسطنطينيــة. ثم رجع إلى السلطان أوزبك بدون الخاتون بيلون؛ فقد رغبت في المقام مع أبيها. وقد شك بعض النقاد في رحلة ابن بطوطة إلى القــسطنطينية، ولا ســيمــا لأنه لم يوضح الطريق الذي سلكه للوصول إليها؛ ولأنه أشار إلى لقائه قيصر الروم السابق بعد أن انقطع للعبادة ونزل عن العرش لابنه، والحقيقة أن هذا القــيصر توفى في السنة السابقة للعام الذي ينم عنه كلام ابن بطوطة. ولكن المستشــرق الإنجليزي الأستاذ جبGibb كتب في مقدمته للمقتطفات التي نشرها من رحلة ابن بطوطة باللغة الإنجليزية أن غموض الطريق الذي سار فيه الرحالة إلى القــسطنطينية يمكن تفسيره بغرابة تلك البلاد في وجه سائح لا يعرف لغتها ولا تــربطه ببيئتها أي صلة؛ أما لقاء الإمبراطور السابق فيمكن تفســيره بخطأ وقع فيه ابن بطوطة في حساب السنة التي زار فيها عاصمة الدولة البيزنطية.

❋ ❋ ❋

وسافر ابن بطوطة بعد ذلك إلى خوارزم وبخاري. ومن طريف ما شاهده في المدينة الأخيرة أن شواهد القبور الموجودة في مدافن علمائها كانت تتضمن أسماء الكتب التي صنفوها في حياتهم. وقد أعجب الرحالة بهذا الأسلوب في تخليد ذكراهم؛ فنقل بعض نصوص تلك الشواهد؛ ولكنه أضاعها بعد ذلك. وأشار إلى ذلك بقوله: «وزرت ببخاري قبر الغمام العالم أبي عبد الله البخاري مصنف الجامع الصحيح شيخ المسلمين رضي الله عنه. وعليه مكتوب: هذا قبر محمد بن إسماعيل البخاري وقد صنف من الكتب كذا وكذا. وكذلك على قبور علماء بخاري أسماؤهم وأسماء تصانيفهم. وكتب قيدت من ذلك كثيرا؛ وضاع مني في جملة ما ضاع لي لما سلبني كفار الهند في البحر».

ثم واصل ابن بطوطة أسفاره إلى سمر قند وترمذ وبلح وهراة وطوس ونيسابور وبسطام وغزنة وكابل. ثم دخل بلاد الهندسنة ٧٣٤هـ (١٣٣٣م) واتصل بسلطانها محمد بن تغلق. وتولى منصب القضاء في دهلي. وأقام فيها حول ثماني سنين. وترك في رحلته وصفا حسنا لكثير من مدنها وآثارها ونباتها وحيوانها. كما تحدث عن أمراء المسلمين فيها، ومن كان يفد عليهم من أعلام الغرباء. وأشار إلى كثير من عادات الهنود وأحوالهم الاجتماعية، فذكر مثلا كيف يتشرف نساء الهندوس بإحراق أنفسهن بعد موت أزواجهن. وقال إن التي لا تفعل ذلك تقيم عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها. كما ذكر الذين يغرقون أنفسهم في نهر الكنج تقربا إلى معبودهم.

وطبيعي أنه أسهب في الكلام على مدينة دهلي وعمائرها وسكانها ومن حكمها من الأمراء المسلمين، ولا سيما السلطان محمد شاه بن تغلق؛ فقد أفاض في وصف بلاطه ومراسيم احتفالاته وفيض كرمه وعطاياه واستقباله

للملوك والأمراء؛ ولكنه وصف إلى جنب ذلك قسوته وشغفه بإراقة الدماء. والحق أن ابن بطوطة أتيح له أن يكتب في وصف هذا السلطان والمتصلين به ما لم يظفر التاريخ الإسلامي بمثله عن بلاط أي أمير آخر. ولم يكن ابن بطوطة مرضيا عنه دائما في بلاط ابن تغلق فقد كان هذا السلطان يقصيه أحيانا ويقر به أحيانا أخرى.

* * *

وكان أن غضب عليه السلطان مرة، فاعتزل الخدمة ووهب ماله للفقراء والمساكين، ولازم أحد الزهاد، ولكن السلطان أراد أن يرسل وفدا من قبله إلى ملك الصين يحمل هدية سنية. واختار ابن بطوطة لرياسة هذا الوفد إلى قندها وركب منها البحر إلى ثغر قاليقوط التي كانت تقصدها سفن أَهل الصين وجاوة وسيلان واليمن وإيران وغيرها.

ورأى الرحالة في هذا الثغر ثلاثة عشر مركبا للصين. ووصف في هذه المناسبة أنواع المراكب الصينية وأساليب بنائها. وأشار إلى ضخامة تلك السفن وقال إن للمركب أربعة ظهور. ويكون فيه البيوت (أي مجموعة الغرف) والمصاري (أي مجموعة الغرف وما يتبعها) والغرف للتجار. والمصرية منها يكون فيها البيوت والسنداس (أي الرحاض) وعليها المفتاح، يسدها صاحبها ويحمل معه الجواري والنساء. وربما كان الرجل في مصريته فلا يعرف به غيره ممن يكون بالمركب حتى يتلاقيا إذا وصلا إلى بعض البلاد» وأضاف ابن بطوطة أن البحارة كانوا سيكنون مع أسراتهم في السفن، وأنهم كانوا يزرعون الخضر والبقول في أحواض من خشب.

ثم شاء القدر أن هبت على مرسى قاليقوط عاصفة شديدة، قذفت إلى عرض البحر بالمركب الذي كانت فيه الهدية التي يحملها الوفد إلى ملك



الجبال في الطريق إلى بلاد التبت

صورة في مخطوط من كتاب «جامع التواريخ» لرشيد الدين

مؤرخ بين عامي ٧٠٧ و ٧١٤هـ (١٣٠٦ - ١٣١٤م)

الصين ولكن ابن بطوطة نفسه كان وقتئذ بالشاطئ. وكان متاعه وغلمانه وجواريه بسفينة أخرى. فلما رأى أهل هذه السفينة ما حل بالسفينة الكبرى التي كانت تحمل الهدية أقلعوا؛ وبقى ابن بطوطه منفردا على الساحل لا يملك إلا عشرة دنانير وبساطا كان يفترشه. فلم يشأ أن يعود إلى سلطان دهلي؛ بل تنتقل بين الساحلين الغربي والشرقي في شبه جزيرة الهند. واشتغل حينا بالغزو والجهاد في خدمة جمال الدين سلطان مدينة هنور.

ثم سافر إلى جزائر ديبة المهل (جزائر الملديف الحالية). وتولى القضاء فيها وأعجب بصلاح أهلها وتقواهم. وكان أكثر نساء هذه الجزائر لا يلبسن سوى «فوطة واحدة تسترهن من السرة إلى أسفل» وسائر أجسادهن مكشوفة. وكن يمضين كذلك في الأسواق وغيرها. فجهد ابن بطوطة لما ولى القضاء بها أن يقطع تلك العادة ويأمرهن باللباس فلم يوفق. ومما عجب له الرحالة «أنهن يؤجرن أنفسهن للخدمة بالديار، على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها، وعلى مستأجرهن نفقتهن، ولا يرين ذلك عيبا. ويفعله أكثر بناتهم، فتجد في دار الإنسان الغني منهن العشر والعشرين. وكل ما تكسره من الأواني يحسب عليها قيمته».

وكان حكم هذه الجزائر قد آل إلى السلطانة خديجة بنت جلال الدين البنجالي حين لم يبق من بيت الملك غيرها وأختان لها. وكان ابن بطوطة صارما في منصب القضاء؛ فأبعد عنه قلوب بعض الوزراء والعيان في الجزائر. ولم يشأ البقاء فيها بعد ذلك؛ فغادرها إلى جزيرة سيلان، ثم إلى ساحل الهند الشرقي فإقليم بنجالة فشبه جزيرة الملايو فسومطرة.

* * *

ووصل ابن بطوطة إلى الصين. وفي رحلته بيانات طيبة عن أحوال الصينيين من المسلمين والوثنين، وعن إتقانهم الصناعات والفنون، ولا سيما التصوير وصناعة الصيني. كما أن فيها أقدم إشارة إلى استخدام ورق النقد في المعاملات. فقد ذكر الرحالة أن عادة التجار في الصين أن يسبكوا ما يكون عندهم من الذهب والفضة قطعا، تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ويجعل ذلك على باب داره، وأن «أهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم. وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعا كما ذكرنا». وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد. كل قطعة منها بقدر الكف، مطبوعة بطابع السلطان. وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان، حملها إلى دار كدار السكة عندنا؛ فأخذ عوضها جددا ودفع تلك. ولا يعطي على أجرة ولا سواها».

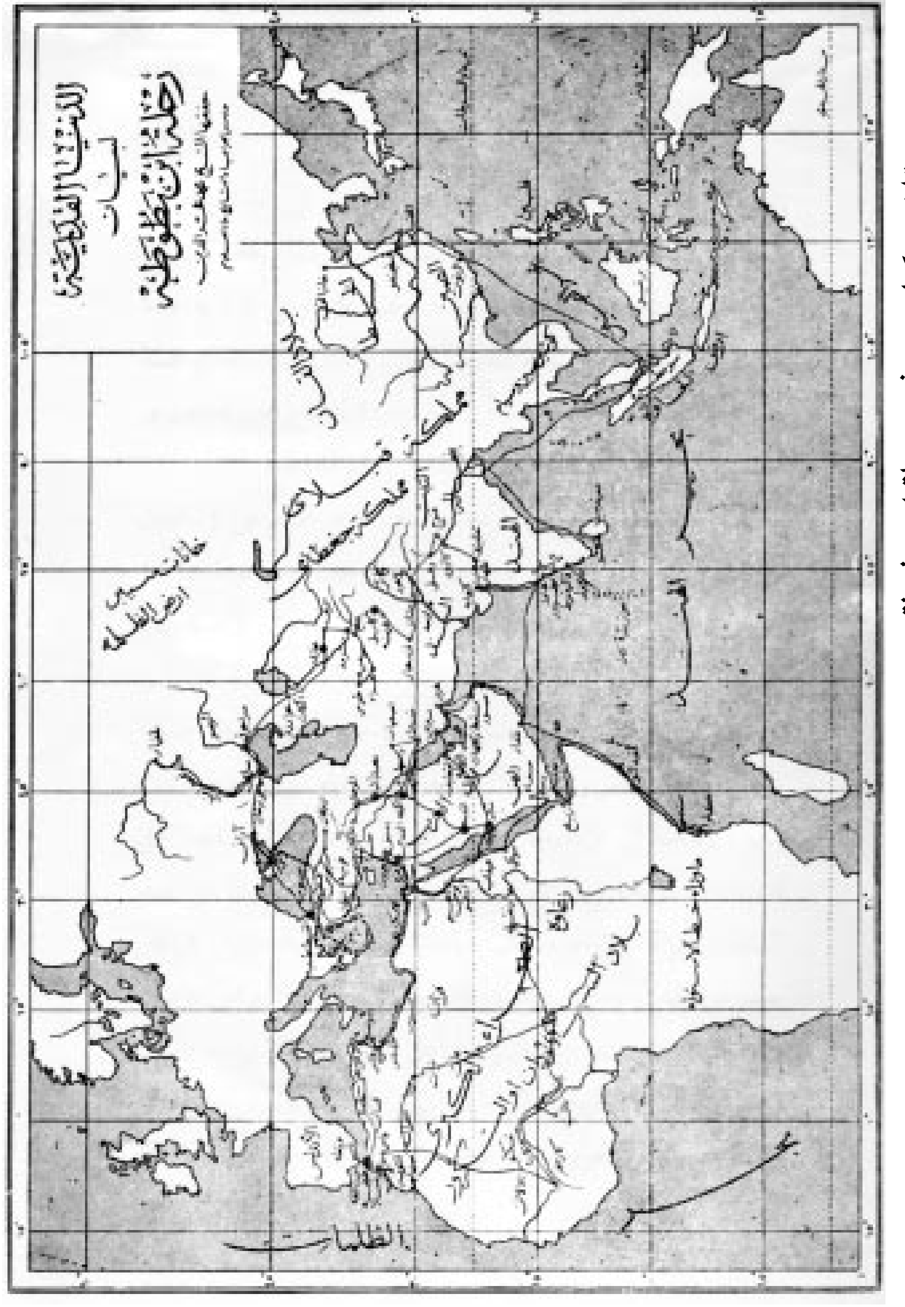
ومما ذكره ابن بطوطة في معرض الحديث عن مهارة أهل الصين في التصوير أن عادتهم أن يصوروا كل من يمر بهم من الغرباء «وتنتهي حالهم في ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثوا صورته إلى البلاد، وبحث عنه، فحيثما وجد في تلك الصورة أخذ».

ولابن بطوطة إشارات طريفة إلى عادة رجال الإدارة والبحرية في تقييد أسماء البحارة ورجال السفن قبل الإذن لها بالسفر فإذا عادت «صعدوا إليها وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس، فإذا فقدو أحد ممن قيدوه طالبوا صاحب المركب به فإما أن يأتي ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث له، وإلا أخذ فيه فإذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملي عليهم تفصيلا بجميع ما فيه من سلع قليها وكثيرها. ثم ينزل من فيه، ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم. فإن عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد جميع ما فيه مالا للمخزن».

وأشار ابن بطوطة إلى ما كان للمسلمين من امتيازات في الصين، فقاتل «ولابد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الإسلام، تكون أمور المسلمين كلها راجعة إليه، وقاض يقضي بينهم» وذكر أن كل مدينة من مدن الصين كان فيها حي للمسلمين يسكنونه ويتخذون فيه المساجد، وأن الحكومة كانت تعني بمراقبة التجار المسلمين وضمان أموالهم التي يدخلون البلاد بها، بحيث لا يمكنهم إنفاقها في الفساد. وكان أولو الأمر في الصين حريصين أشد الحرص على ألا يقال إن المسلمين يخسرون أموالهم في الصين.

وأعجب ابن بطوطة ببيوت أهل الصين فقال: «وجميع بلاد الصين يكون للإنسان بها البستان والأرض وداره في وسطها كمثل ما هي بلدة سجلماسة ببلادنا. وبهذا عظمت بلادهم»، كما أعجب ببعض منشآت الشؤون الاجتماعية، ولا سيما بمعبد كبير شاهده في مدينة «جيني كلان» كان فيه بيوت لسكن الضريرين وذوي العاهات وفيه مستشفى كبير. وكان الأيتام والأرامل والشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب يحصلون من هذا المعهد على ما يلزمهم من النفقة والكسوة. وطبيعي أن المعهد كانت له أوقاف غنية.

ويبدو من رحلة ابن بطوطة أن المسافرين المسلمين القادمين إلى الصين كانوا يلقون من بني دينهم في تلك البلاد أعظم الترحيب والإكرام. من ذلك أن ابن بطوطة، حين وصل إلى مدينة قنجنفو، خرج إليه القاضي وشيخ الإسلام والتجار ومعهم الأعلام والطبول والأبواق والأنفار وأهل الطرب، وأتوه بالخيل، فركب ومشوا بين يديه ولم يركب معه غير القاضي والشيخ. وكان المسلمون في البلاد الصينية التي ينزلها ابن بطوطة يقيمون له الولائم ويقدمون له الهدايا ويصحبونه إلى رحلات في القوارب ومعهم المغنون والموسيقيون، يغنون بالصينية والعربية والفارسية.



نقلا عن كتاب «مهذب رحلة ابن بطوطة»

ومن أعـلام المسلمين الذين لـقيـهم ابـن بطوطة في بلاد الصين أسـرة مصرية الأصل نزل بدارها في مدينة «خنسـا». قال الرحالة: «ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان المصري. وكان أحد التجار الكبار؛ استحسن هذه المدينة فاستوطنها. وعرفت بالنسبة إليـه، وأورث عقبه بها الجاه والحرمة. وهم على ما كان عليـه أبوهم من الإيثار على الفقراء والإعانة للمـحتاجين. ولهم زاوية تعرف بالعثمانيـة حسنة العمارة لها أوقاف كثيرة. وبني عثـمان المسجد الجامع بهذه المدينة، ووقف عليـه وعلى الزاوية أوقافا عظيمة. وعـدد المسلمين بهذه المدينة، وكانت إقامتنا عندهم خمسـة عشر يوما، فكنا كل يوم وليلة في دعوة جديدة، ولا يزالون يحتفلون في أطعمـتهم، ويركبون معنا كل يوم للنزهة في أقطار المدينة».

ومن غريب ما ذكره ابن بطوطة عن نظم التـأمين الاجتماعى فى الصين أن العـامل أو الصـانع كان يعـفى من العـمل وتنفق عليـه الحكومـة إذا بلغ الخمسين، وأن من بلغ ستين سنة عدّوه كالصبى فلم تجر عليه الأحكام».

***

وعاد ابن بطوطة من الصين معرجا على سـومطرة، حيث حظى بضيافة سلطانهـا الملك الظاهر وأتيح له أن يشـهد أعـراس ابنه وولى عهـده مع بنت أخيه؛ ولاحظ أن الزفاف بدأ بخروج العروس «من داخل القـصر على قدميها بادية الوجه، ومعها نحو أربـعين من الخواتين يرفعن أذيالها من نساء السلطان وأمرائه ووزرائه، وكلهن باديات الوجوه، ينظر إليـهن كل من حضر من رفيع أو وضيع. وليـست تلك أهل الطرب رجالا ونساء يلعبـون ويغنون؛ ثم جاء الزوج على فـيل مزين، عـلى ظهره سـرير، وفوقـه قـبة والتـاج على رأس العروس المذكور، عن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك والأمراء قد لبسوا

البيـاض وركبـوا الخيل المزينة وعلى رؤوسـهم الشواشي المرصـعة وهم أتراب العروس، وليس فيهم ذو لحية. ونثرت الدنانير على الناس عند دخوله. وقعد السلطان بمنظرة له يـشاهد ذلك. ونزل ابنه فـقـبل رجله، وصـعد المنبـر إلى العـروس فقـامت إليـه وقبلت يده. وجلس إلى جـانبـها والخـواتين يروحن عليها..».

ولم يشأ ابن بطوطة أن يعود إلى دلهي ثانية وأستأنف أسفاره إلى الخليج الفارسي والعـراق. ولقى في بغداد بعض المغـربة. فعرف منهـم الهزيمة التي حلت بأبي الحسن سلطان المغرب في قتال الفونس الحـادي عشر ملك قشتالة. (وكان ذلك على مقربة من طريف سنة ٧٤١هـ أي ١٣٤٠م) كما علم بسقوط الجزيرة الخضراء في يد الأسبان المسيحيين سنة ٧٤٣هـ (١٣٤٢م).

***

ثم وصل إلى دمشق. وذكر في الكـلام عليها حديثا يؤيد مـا أشرنا إليه من تزوج الرحالة المسلمين في كثيـر من البلاد التي يمرون بها. قال: «وكانت مدة غـيبي عنهـا عشـرين سنة كاملة. وكنت تركت بهـا زوجة لي حـاملا. وتعرفت وأنا ببلاد الهند أنها ولدت ولدا ذكرا. فـبعثت حينئذ إلى جده للأم، وكان من أهل مـكناسة المغرب أربعين ديـنارا ذهبا هنديا. فحـين وصولي إلى دمشق في هذه الكرة لم يكن لي هم إلا السؤال عن ولدي. فـدخلت المسجد فـوقف لي نور الدين السخـاوي إمام المالكـية وكـبيـرهم فسلمت عليـه فلم يعرفني، فعرفـته بنفسي وسألته عن الولد فقال: مـات منذ اثنتي عشرة سنة، وأخبرني أن فقيها من أهل طنجة يسكن بالمدرسة الظاهرية؛ فسرت إليه لأسأله عن والدي وأهلي، فوجدته شيخا كبيـرا فسلمت عليه وانتسبت له، فأخبرني أن والدي توفى منذ خمس عشرة سنة، وان الوالدة بقيد الحياة».

وكان ابن بطوطة بالـشام حسن انتـشر الطاعون في مـدنها سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) فأشار إلى كثرة ضحـاياه وواصل السفر في مصر، ووجد أن الوباء كان قـد انتشر في بعض مـدنها ثم خفت حـدّته. واتجه الرحالة إلى عـيذاب حيث أبحر إلى الحجاز لتأدية الفريضة مرة أخرى. ثم قصد إلى فلسطين ومنها إلى القاهرة.

وأكبـر الظن أنه لم يكن قـد عقد العـزم على الرجوع إلى وطنـه بعد؛ ولكنه سمع في مصـر عن عظمة السلطان أبى عنان ونجاحه في النهـضة ببلاد المغرب وإحسـانه على الخاص والعام، فأراد أن يقـصد بابه، ويمم شطر وطنه الأول.

* * *

أبحر ابن بـطوطة من مصر إلى تـونس في صفر سنة ٧٥٠ (مـايو سنة ١٣٤٩). وسافر من تونس على سفينة مع الـقطلانيين مرت بجزيرة سردانية. ولـم تكن رحلتـه إلى أرض الوطن خاليـة من الأخطار؛ فقد كـاد أن يقع في أيدي القرصان المسيحـيين؛ ولكنه وصل أخيراً إلى مدينة فاس ونزل في بلاط السلطان أبى عنان. ثم سافـر إلى طنجة وزار قبر والدته؛ وعـزج على مدينة سبته، فمرض بها ثلاثة أشهـر. وكأنه أراد ألا يلقى عصا التسيار قبل أن يزور الدولتين الإسـلاميـتين اللتين لم تطأهـما قـدماه بعـدُ وهمـا الأندلس ومملكة المسلمين في السودان الغربى.

* * *

قام ابن بطوطة إذن برحلة ثانيـة، زار فيها الأندلس. وأشـار إلى موت الفـونس الحادي عـشر ملك قـشتـالة أثناء حصـاره جبل طارق وعـمله على

الاستيلاء على ما بقي بأيدي المسلمين من بلاد الأندلس. وأتيح للرحالة أن يشاهد الحصون وأعمال الدفاع التي أقامها في جبل طارق السلطان أبو عنان وأبوه السلطان أبو الحسن. ثم زار مالقة وأعجب بالخزف النفيس ذي البريق المعدني، وكان يصنع بها ويصدر إلى أقاصي البلاد. ودخل بعد ذلك غرناطة وأعجب بجمال موقعها وما بها من قصور وبساتين وكروم.

***

وعاد ابن بطوطة إلى مدينة فاس عاقدا العزم على السفر في رحلته ثالثة ليزور بلاد المسلمين في السودان الغربي؛ وقيل إن السلطان أوفده في مهمة إلى تلك البلاد. ومهما يكن من المر فقد استأذن في الرحيل، واتجه إلى سجلماسة وانضم فيها إلى جماعة من التجار[1]. وبدأت القافلة رحلتها عبر الصحراء الكبرى في أول سنة ٧٥٣ (فبراير ١٣٥٢)، ووصلت بعد خمسة وعشرين يوما إلى مدينة تغازي حيث يستخرج الملح. ولاحظ ابن بطوطة أن السودان يتعاملون بالملح كما يتعامل غيرهم بالذهب والفضة. ووصلت القافلة إلى (تاسرهلا)، ومنها يبعث «التكشيف» إلى مدينة إيوالاتن. وقد شرح ابن بطوطة أن التكشيف دليل من قبيلة مسوفة يكتريه أهل القافلة فيتقدم إلى إيوالاتن بكتب من المسافرين إلى أصحابهم بها، ليكتروا لهم الدور ويخرجوا للقائهم بالماء مسيرة أربع ليال. ومن لم يكن له صاحب في إيوالاتن كتب إلى أحد المشهورين بالفضل من تجارها وإذا حدث أن تاه هذا الدليل أو أهلك، فلا يعلم أهل إيوالاتن بالقافلة؛ وربما هلك من فيها أو الكثير منهم. وذكر ابن بطوطة أن دليل قافلته كان «أعور العين الواحدة مريض الثانية» وكان مع

---

(١) كانت العلاقات التجارية متصلة بين بلاد المغرب وأقاليم السودان.

راجع Ch de la Ronquete de l'Afrique au moyen Age ج١ ص٨٧-٨٨.

ذلك أعرف الناس بالطريق. وقـد تحدث الرحالة عن شدة الحـر في الصحراء وذكر أن القـافلة كانت ترحل بعد صـلاة العصر وتسيـر الليل كله وتقف عند الصباح.

وصلت القافلة إلى إيوالاتن بعـد سفر شهرين كاملين من سـجلماسة. وذكر ابن بطوطـة أنها أول أقاليم مملكـة السودان وأقصـاها شمـالا وأن أهلها كـانوا يحتـقرون البـيض، وأن ثيابـهم كانت من المنسـوجات المصـرية، وأن معظمهم من قبيلة مسوفة. «وشـأن هؤلاء القوم عجيب وأمرهم غريب. فأما رجالهم فـلا غيرة لديهم ولا ينتـسب أحدهم إلى أبيه بل ينتـسب لخاله. ولا يرث الرجل إلا أبناء أختـه دون بنيه. وذلك شيء ما رأيتـه في الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود. وأما هؤلاء فـهم مسلمون محفظون عليالصلوات وتعلم الفـقه وحـفظ القرآن. وأمـا نساؤهم فـلا يحتـشمن من الـرجال ولا يحتجبن مع مواظبـتهن على الصلوات. ومن أراد التزوج منهن تزوج. لكنهن لا يسافرن مع الزوج. ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعـها أهلها. والنساء هنالك يكون لهن الأصـدقـاء والأصحـاب من الرجـال الأجانب وكـذلك للرجـال صواحـب من النساء الأجنبـيات ويدخل أحـدهم داره فيـجد امـرأته ومعـها صاحبها، فلا ينكر ذلك».

وروى ابن بطوطة قصتين في هذا الشأن. قال في الأولى: «دخلت يومًا على القـاضي بإيوالاتن بعد إذنه في الدخـول، فوجدت عنده امـرأة صغـيرة السن بديعة الحـسن، فلما رأيتهـا ارتبت وأزدت الرجوع فـضحكت منى ولـم يدركها خـجل. وقال لي القاضي: «لم ترجع؟ إنهـا صاحبتي» فعـجبت من شأنهما، فإنه من الفقهـاء الحجاج، وأخبرت أنه استأذن من السلطان في الحج في ذلك العام مع صاحبته لا أدري أهي هذه أم لا، فلم يأذن له».

وقال ابن بطوطة في الحكاية الثانية: دخلت يومًا على أبي محمد بندكان المسوفي الذي قـدمنا في صحـبته فوجـدته قاعـدًا على بساط وفي وسط داره سرير مظلل عليـه امرأة معـها رجل قاعد وهمـا يتحدثان فـقلت له: ما هذه المرأة؟ فقـال: هي زوجتي، فقلت: وما الرجل الذي مـعها منها؟ فـقال: هو صـاحبـها. فـقلت له: أترضى بهـذا وأنت قد سـكنت بلادنا وعرفت أمـور الشرع؟ فقال لي: مـصاحبة النساء للرجال عندنا على خـير وحسن طريقة لا تهمة فيها، ولسن كنساء بلادكم؛ فـعجبت من رعونته وانصرفت عنه فلم أعد إليه بعدها واستدعاني مرات فلم أجبه».

غادر ابن بطوطة إيـوالاتن ميمـمًا شطر «مالى» الواقـعة جنوبيـها على مسيـرة أربعة وعشرين يومًا. واكـترى هو وثلاثة من أصحابه دليـلا من قبيلة مسـوفة. ومر بطريق فيـها أشجـار ضخمة قـد تستظل القافلة بظل الشـجرة الواحدة منها. وبعض هذه الأشجار يحـفظ فيه ماء المطر ويشرب الناس منه. وقد ذكر الأسـتاذ جب Gibb في تعليقـه على هذا الوصف أن هذا النوع من الشجـر أدخل من أفريقـية الغربيـة إلى إقليم كردفان فـي القرن الثامن عـشر وكانوا يفرغون جذوعه لتخزن فيها المياه فتقوم مقام الآبار.

وأشار الرحالة إلى أن المسافـر في تلك البلاد لا يحمل زادًا وإنما يحمل قطع الملح وحلى الـزجاج أو الخـرز وبعض السـلع العطرية، فـإذا وصل إلى إحدى القـرى جاء نسـاء السودان بالذرة واللبن والدجاج ودقـيق النبق والأرز والفوفي - وهو كحب الخردل يصنع من الكسكسو- والعصيدة ودقيق اللوبيا، فيشترى منهن ما أحب من ذلك.

ووصل ابن بطوطة إلى مدينة كارسخو علـى نهر النيجر وظنه نهر النيل وقال إنـه ينحدر من كـارسخـو على بلدة كابره فـبلدة زاغة ثم إلى تنبكـتو.

ولاحظ أن أهل زاغة قـدماء في الإسلام مـتمسكون بأهداب الدين ومـقبلون على طلب العلم. والواقع أن هذه المنطقـة، وهي على فرع النيـجر الشـمالي الغربي مـقر مملكة تكرور التي كـانت أول معقل للإسـلام بالسودان في بداءة القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي).

وكان ابن بطوطة يعـتقد أن «النيل» (أي النيجر) ينحـدر من تمبكتو إلى بلدة كوكـوثم على بلدة مولى فبلدة يوفي ثم ينـحدر إلى بلاد النوبة ودنقلة. ولعل وجـود بحر الغـزال كـان سببـًا في هذا الخطأ. ولـكن معظم الرحـالة والجغرافيين كانوا يعتقدون أن نهر النيجر يصب غربًا وكانوا يخلطون بينه وبين نهر السنغال، إلى أن أتيح للطبيب البريطاني منجو بارك Mungo park أن يقوم برحلته لكشف حوض النيجر سنة ١٧٩٥، فيتقـدم في إقليم غمبيا ويعبر نهر السنغال ثم يتبع مجرى النيجر إلى مسافة قريبة من تمبكتو.

ووصل ابن بطوطة أخيرًا إلى مدينة مالي محاضرة مملكة السودان المسماة بهذا الاسم. وأشار إلى أن من عادات أولى الأمر فيها أن يمنعوا الناس دخولها إلا بالإذن. وكان الرحـالة قد كتب إلى زعمـاء الجالية العربيـة فيها فـحصلوا على ذلك الإذن وإكتروا له دارًا وكـان بين أولئك الزعماء تاجر مصـري اسمه شمس الدين بـن النقويس المصري. والظـاهر أن هذه المدينة كان فيـها جـالية مصرية بارزة، وقد أشـار ابن بطوطة إلى مرض أصيب به فيهـا وكان علاجه على يد أحد أفراد تلك الجالية.

وقد ذكر الرحالة بخل منسا سليمان سلطان مالي في عبارة ظريفة تشهد بما اعتاده من كرم الأمراء والسلاطين، قـال «ولما انصرفت بعث إلى الضيافة، فوجـهت إلى دار القـاضي. وبعث القاضي بهـا رجاله إلى دار ابن الـفقـيه. فخرج ابن الفقـيه من داره مسرعا حافي القدمـين، فدخل عليّ وقال «قم قد

جاءك قماش السلطان وهديته. فقمت وظننت أنها الخلع والأموال، فإذا هي ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقري مقلو بالغرتى، وقرعة فيها لبن رائب؛ فعندما رأيتها ضحكت وطال تعجبي من ضعف عقولهم وتعظيمهم للشيء الحقير».

وطبيعي أن السودان في تلك المملكة كانوا يتكلمون لغة غير العربية. ولعل المسلمين المقيمين فيها من العرب والبربر كانوا يتعلمون تلك اللغة الوطنية. وقد أشار ابن بطوطة إلى وجود مترجم في بلاط الملك كان وساطة الكلام بينه وبين من لا يعرفون لغة البلاد. وكان لهذا المترجم شأن كبير بارز في البلاط فكأن كالأمين الأول للملك.

وتحدث ابن بطوطة عن كثير من أحوال السكان في تلك البلاد وعن عاداتهم البدائية وأعجب بقلة الظلم في بلادهم، وشمول الأمن بحيث لا يخاف المسافر فيها ولا القيم من سارق ولا غاصب؛ كما ذكر أنهم لا يتعرضون لمال من يموت في بلادهم من البيض، يتركونه لثقة من جنس المتوفي حتى يأخذه مستحقه. وأشار إلى عنايتهم بحفظ القرآن وإقبالهم على صلاة الجماعة وحرصهم على لبس الثياب البيض النظيفة يوم الجمعة، حتى إنه إذا لم يكن لأحدهم إلا قميص بال غسلة ونظفه وشهد به الجمعة. ولكن ضايق ابن بطوطة أن أرى الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات كما أغمه أن النساء كن يدخلن على السلطان عرايا غير مستترات وأن بنات السلطان نفسه كن عرايا.

ومن طريف ما ذكره ابن بطوطة عن السودان أن منسا موسى أحد ملوك مالي كان قد غضب على قاض من البيض فنفاه إلى بلاد الزنوج الذين يأكلون بني آدم. وأقام هذا القاضي عندهم أربع سنين ثم رجع إلى مملكة مالي. ولم

يأكله الزنوج لبياضه؛ فقد كانوا يعتقدون أن أكل الأبيض مضر لأنه لم ينضج بعد! . أما الأسود فهو وحده ذو اللحم الناضج.

وغادر الرحلة مـدينة مالي ورأى في النيجـر فرس البحـر لأول مرة في حيـاته. ثم وصل إلى مدينة تمبكتو وشـاهد بها قبـر سراج الدين بن الكويك أحد كبـار التجار من أهل الإسكندرية وكان قـد جاءها ليقتـضي مالاً له كان السلطان منسا مـوسى اقترضــه منه لما كان بمصر مـتوجهًـا إلى الحج. وشاهد كذلك قبر الشاعر المهندس أبي إسـحق الساحلي الغرناطي. وكان هذا الشاعر قد لقي منسا موسى في مكة أثناء تأدية فريضة الحج؛ ثم صحبه بعد ذلك إلى بلاد السودان، وشيّد له قصره الملكي والمسجد الجامع في تمبكتو[١].

واصل ابن بطوطة السـفـر شرقاً في الصـحراء حـتى وصل إلى مـدينة تكدّا. وذكر أن أهلها لا عـمل لهم إلا التجارة «يسافرون كل عـام إلى مصر ويجلبون ما بها من حسان الثـياب وسواها». وكان سلطانها من البربر؛ ولعله كان زعيم قبيلة المسوفة. وذكر ابن بطوطة أن أهل تكدا كانوا في رفاهية وسعة حال وكانوا يتـفاخرون بكثرة العبـيد والخادمات. وكان معـدن النحاس يوجد بكثـرة علـى مـقـربة من بلدهم فـكانوا يأتون به، ويسـبـكونه في دورهم، وينصعـون منه قضبانًا في طول شـبر ونصف بعضهـا دقاق وبعضــها غلاط، ويتخذون هذه القضــبان صرفًا لهم فيشترون برقـاقها اللحم والحطب ويشرون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح.

* * *

(١) راجع Ch. De la Ronciere: La Decouverte de L' Afrique au Moyen Age ج١ ص١١٦ - ١٦٣.

وكانت هذه المدينة آخر مرحلة في رحلة ابن بطوطة، فقد وصل إليه فيها رسول من قبل السلطان أبي عنان، يطلب إليه الرجوع إلى فاس. فغادر تكدا في الحادي عشر من شهر شعبان سنة ٧٥٤هـ (١١ سبتمبر سنة ١٣٥٣) ووصل إلى فاس بعد سفر ثلاثة شهور.

والحق أن رحلة ابن بطوطة إلى بلاد السودان ليست أقل شأنًا من رحلته الكبرى؛ فقد كان أول رحالة الآفاق المجهولة في الصحراء الكبرى؛ وكتب عن مشاهداته فيها[١].

* * *

وقد وفق ابن بطوطة كل التوفيق فيما أملاه عن رحلته، فخلف لنا صورًا صادقة، كلها حياة للعصر الذي عاش فيه، ووصف لنا الأشخاص والجماعات وصفًا يجعلنا نشعر كأنهم بين أيدينا وزار كل الدول الإسلامية في عصره، وقطع في أسفاره مسافة قدرها بعض العلماء بخمسة وسبعين ألف ميل، وهي مسافة لا يظن أن رحالة غيره قطعها قبل استخدام البحار في وسائل السفر. لذلك كله خصصناه بالإطالة في هذا العرض.

* * *

(١) المرجع السابق ج١ ص٨٩-٩٤.



عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري

هو زين الدين عـــبـد البـاسط، ولد في ملطيـــة في رجب سنة ٨٤٤ (ديســمــبــر سنة ١٤٤٠). وكـان أبوه خليل بن شـاهين الظاهري من أمـراء المماليك وأعلام رجـال الإدارة في عصره بل كان من كبار المؤلفين كـما يشهد بذلك كـتـابه «زبدة كشـف الممالك وبيـان الطرق والمسـالك». وهو عـرض للوظائف السياسية والإدارية في إمبراطورية المماليك في القرنين السابع والثامن بعد الهجرة (١٣ - ١٤م).

ولكن عبد الباسط لم يتـبع أباه في سلك الإدارة بل درس الفقه والأدب والطب واشـتغل بالتـجارة والتـأليف. ومن آثاره كـتاب «الروض البـاسم في حوادث العمر والتراجم»: ويبحث في تاريخ الدول الإسلامـية ولا سيما مصر وسورية، على نمـط كتاب السلوك للمـقريزى. ولم يصلنا مـنه إلا أجزاء في مخطوطتين بمكتبة الفاتيكان. وتشمل إحداهما الكلام على ما بين سنتي ٨٦٥ و٨٤٧هـ. وفيها إشارات إلى رحلة طويلة قام بها عبد الباسط في بلاد المغرب للتجارة ودراسة الطب على أعلام الأطباء في تلك البلاد.

وقد أتيح لـه أن يقضى فى هذه الرحلة بضع سنوات فى زيارة المـمالك والدويلات الإفريقيـة الواقعة في حكم الحفصيين وبنى عـبد الواد وبنى نصر. وكان سـفره من الإسكندرية في شوال سنة ٨٦٦هـــ (يوليه سنة ١٤٦٢) على

إحدى سفن البندقـية ومر بجزيرة رودس ثم نزل في تونس بعـد رحلة بحرية دامت ثلاثة وثلاثين يومًا.

وبعد أن أقـام عدة أشهـر في عاصمـة بنى حفص غـادرها على إحدى سفن البندقية إلى طرابلس ومنها إلى قابس ثم القيروان. ورجع بعد ذلك إلى تونس ثم رحل عنها إلى قسطنطينية وبجايا والجزائر ومازونا وتلمسان وواهران وأبحر على باخرة جنوية إلى الأندلس في ربيع الثاني سنة ٨٧٠ (ديسمبر سنة ١٤٦٥) وزار مـالقـة وغـرناطة في شـهـرين ونـصف. ثم رجع إلى وهران وغادرها بعد عدة أشهر إلى تونس على باخرة جنوية. ثم رجع إلى مصر مارًا بليبيا؛ فوصل الإسكندرية في شوال سنة ٨٧١ (مارس ١٤٦٧).

***

ومما يؤسف له أن عبد البـاسط لم يدون أخبار رحلته في كتاب مـستقل ولكنه كتبها في مواضع متفرقـة في كتابه «الروض الباسم». وقد قام المستشرق ليفي ديلافيدا Levi della vida بنشر المقـتطفات الخاصة بالأندلس مع ترجـمة وتعليـقات في مـجلة «الأندلس» سنة ١٩٣٣ وأعلن عـزمـه على نشر الجـزء الخاص بطـرابلس. بينما قـام الأستاذ برنـشويج Brunschwig بنشـر الأجزاء الخاصة بتونس والجـزائر ومراكش ومعها ترجمة فرنسـية وتعليقات. والحق أن هذه المقتطفات وثائق عظيمة الشأن في تاريخ العرب في القرن التاسع الهجري (١٥م) فهي تميط اللثام عـن جوانب شتى من الحياة الاجـتماعية والاقـتصادية والسياسية في ذلك العصر.

وكان عـبد الباسط يكسب نفـقات أسفاره من التـجارة في العبـيد وفي البضائع المصرية والمغربية واسـتطاع بذلك أن يختلط بالتجار في البلاد التي مرّ بها. ولكنه كان يجتمع - فضلا عن ذلك - بالفقهاء والعلماء ولا سيما رجال

الطب. وكان ينظم الشعر فأمكنه الوصـول إلى مجالس العظماء. وكان يكافأ على قـصائده في المديح بإعـفائه من الضـرائب على تجارته أحـيانًا، وبمنـحه العطايا أحيـانًا أخرى. من ذلك أنه نظم قـصيدة في مـدح صاحب تلمـسان «فكتب له ظهيرًا بمسامحته في كل ما يتصرف فيه من نوع المتجر» وأنه في سنة ٨٦٧ أنشـد للمتـوكل على الله صاحب تونس يتـبين في مدح بني حـفص، هما:

ألا يا آل حـفص يا ملـوكا ويا دررًا بهم نظمت سلوك

ألا فقتم ملوك الأرض طـرًا فما من بعدكم أحـد مليك

فأعـجب بهما المتوكل وكـتب لعبد البـاسط «ظهيرًا بإعفـائه من المغارم واللوازم فيما يتجر فيه».

وعرف عبد البـاسط بالتسامح الديني واحترام عقائد الآخـرين كما يتبين من حديثه عن طبـيب إسرائيلى لقيه في تلمـسان سنة ٨٦٩هـ قال: »ولازمت في الطب الرئـيس الفـاضل الماهر... مـوسى بن صـمـوئيل بن سـهـودا الإسرائيلى المالقى الأندلـسى اليهودى المتطبب... هداه الله تعـالى للإسلام. لـم أسمـع بذمى ولا رأيت كمـثله في مهـارته في هذا العلم وفي علم الوفق والميـقات وبعض العلوم القـديمة مع التـعبـد الزائد في دينه على مـا يزعمـه ويتـعقـده. وهو في الأصل من يهـود الأندلس وولد بمالقـة قـبل العشـرين وثمانمائة وأخذ عن أبيه وغيره، وأجازنى وبلغنى عنه في هذه الأيام بأنه انتهت إليه الرياسة في الطب بتلمسان وهو مقرب ومختص بصاحبها».

وقد وصف عـبد البـاسط نزوله وغيـره من التجار المسلمـين في ساحل البحر بالقرب من بجاية، بعد تركهم السفينة الجنوية التى قدموا عليها، وأشار

إلى أن طائفة من البربر في تلك النواحى فروا عند ما رأوه وسائر التجار وظنوا أن السفينة لبعض القرصان من الفرنج «غيروا هيئتهم حيلة لأخذ المسلمين» فصار التجار ينادونهم من البعد باللغة العربية ويقرون بالشهادتين، والبربر «لا يلتفتون إليهم لكونهم لا يعلمون اللغة العربية بل البربرية فلا يفرقون بين لغة الفرنج والعرب».

وفي هذه القصة إشارة إلى الغارات الكثيرة التى كان المسيحيون يشنونها على ثغور إفريقية لأسر المسلمين. وكان من المألوف في تلك البلاد أن يأتى الأفرنج بأسراهم من المسلمين إلى إفريقية فيفديهم أهل البلاد.

ومن طريف ما رواه عبد الباسط قصة على عبث قطاع الطرق واللصوص بالتجار في ذلك الحين. وخلاصتها أن جمعًا من التجار باعوا تجارة لهم في فاس وأرادوا الرجوع إلى أوطانهم ولكنهم كانوا يحسبون لقطاع الطرق ألف حساب »فاتفق أربعة منهم على الرجوع بحيلة احتالوها، مشت على العرب وقطاع الطريق، بأن شروا حميرًا وجعلوا عليها أخراجًا بما كان معهم من المال النقد، وعمدوا إلى عبى عتيقة فجعلوها أغطية على الأخراج، وأنهم أخذوا الطحال من الغنم فجففوه ودقوه وحملوه معهم مع شيء من الغراء وخرجوا وكانوا إذا قربوا من طائفة من العريان أو نجع أذابوا الغراء الذى معهم وجعلوا يلطخون مواضع من أبدانهم على رقابهم ووجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى نصف الساق ثم يذرون على ذلك مما معهم من الطحال المدقوق المجفف ويمشون بأسكانهم، يوهمون بأنهم مجاذيم من أهل البلاء، وأنهم يجولون بحميرهم عليها زادهم وأثاثهم فكانوا إذا اجتازوا على العرب ورأوهم على تلك الحالة هربوا فارين منهم وأبعدوا عنهم يخشون العدوى حتى كانوا يجعلون لهم من أنواع المآكل على ممرهم بالطريق ويشيرون

إليهم من البعد بأن يأخذون ذلك ويدعون لهم من غير أن يقربوا منهم ولا يصلوا إليهم. . . ولم يزالوا على ذلك حتى وصلوا إلى بلادهم ولم يروا إلا الخير والسلامة، وكان يكاد أن لا يطير الطير من شرور من اجتازوا بهم من العربان وعد ذلك من غريب الحيل والنوادر».

وروى عبد الباسط قصة أخرى يتبين منها أن التجار الداخلين مدينة واهران كان يؤخذ منهم عند باب المدينة عشر قيمة ما معهم من البضائع، وأن بعضهم كان يلجأ إلى تهريب بضائعه بتوزيعها على من يدخل المدينة من أهلها، لأنهم لا يفتشون ولا يطلب إليهم أن يدفعوا أى ضريبة على ما يحملون. وكان التجار يستردون بضائعهم في المدينة بعد نجاح حيلتهم في التخلص من دفع الضريبة المطلوبة.

وأشار عبد الباسط إلى أن الأشراف من بنى هاشم كانوا يلقون في بلاد العرب تعظيمًا كبيرًا، مما أدى إلى أن بعض المحتالين كان يفد من مصر والعراق إلى بلاد المغرب منتسبًا إلى أسرة النبي وجامعًا حوله نفرًا من الأنصار والمحتالين ولم يكن من السهل أن يكشف أمرهم.

ومما لاحظه هذا الرحالة أن المسجونين في تونس كانوا في حالة يرثى لها وقد حدث في جمادى الثانية سنة ٨٦٧هـ أن كثرت استغاثتهم «حتى أعيوا السامعين، فسأل السلطان صاحب تونس عن حالهم فبلغه بأنهم يشكون الجوع فأمر لهم بطعام يفرق فيهم وحصل لهم بذلك نوع رفق في الجملة».

وصفوة القول أن عبد الباسط روى في كتابه أخبارًا كثيرة عن رحلته في بلاد المغرب والأندلس. وكلها تشهد بدقة ملاحظته وتشير إلى نظم تلك البلاد في عصره وإلى أحوالها الاجتماعية والاقتصادية.

الخاتمة

عرضنا في الصفحات السابقة أخبار الرحالة المسلمين، وظهر لنا أن المجهولين منهم أكثر ممن حفظ التاريخ أسماءهم. فمعظمهم لم يعن بتدوين أخبار أسفاره. واستطاع نفر قليل منهم أن ينتفع بها في الكتابة في التاريخ وعلم تقويم البلدان. ووفق أفراد معدودون لتدوين أحاديث الرحلات التى قاموا بها ولسرد مشاهداتهم العجيبة في البلاد التى تجولوا فيها.

* * *

وأما شأن هذه الرحلات في تطور العلم والمعرفة فما من شك في أن المسلمين ساهموا في تعريف بالشرق الأقصى وإفريقية فضلا عن آفاق دولتهم المتراخية.

فالرومان كانوا يتخيلون وجود الصين؛ ولكن الرحالة المسلمين عرفوها وكتبوا عنها منذ بداءة العصور الوسطى أخبارًا أيتها رحلة ماركوبولو البندقى في القرن الثالث عشر الميلادى. وكان الرومان لا يعرفون من قارة إفريقية إلا سواحلها الشمالية، أما المسلمون فقد عبروا الصحراء وعرفوا مجاهل هذه القارة التى ظل الأوروبيون حتى القرن الثامن عشر يقفون عند سواحلها فلا تتطول أعناقهم إلى وراءها.

أما بلاد العرب والعراق وإيران فطبيعي أن يكون المسلمون المرجع

الأساسي في دراسة وصفها الجغرافي والعمراني والاجتماعي، إلى غير ذلك مما لم يصل إليه الغربيون قبل العصور الحديثة.

* * *

وحسبنا لتبيان فضل الرحالة المسلمين أن ينتهى بنا المطاف إلى أن دراستهم على نحو وافٍ دقيق أمر لابد منه لكل بحث في تاريخ التجارة أو النظام السياسي أو التاريخ الاجتماعي في الشعوب الإسلامية والأمم التى اتصلت بها؛ فإن ما كتبه الرحالة المسلمون من وصافين وجغرافيين كنز لا ينضب معينه، يضم الوثائق العظيمة الشأن في تاريخ الإنسانية. وفي استطاعة الباحث أن يستخرج منها شتى الحقائق ومختلف ضروب المعرفة، مطمئنًا إلى نتائج بحثه، إذا أقبل على دراسة هذه الوثائق ببصيرة نافذة وبشيء من الحذر الذى يتطلبه النقد العلمى عند معالجة النصوص في العصور الوسطى غربية كانت أو شرقية.

* * *

وتمتاز قصص الرحلات الإسلامية عامة بظهور شخصيات الرحالة فيها، فإن أكثرهم لا يقفون عند وصف مراحل أسفارهم وصفًا عامًا، بل يعنون بتقييد الظواهر الاجتماعية غير المألوفة في أقاليمهم. ثم إنهم يحرصون على لقاء أعلام البلاد التى يجتازونها من علماء وأدباء ورؤساء إلى جنب تعرفهم إلى طبقات الشعب المختلفة.

* * *

وقد كتب المستشرق الروسى فلاديمير مينورسكى V. Minorsky أن جغرافى العرب ملأوا الفراغ وسدوا الفجوة الزمنية بين عهد بطليموس العالم

اليوناني وعهد ماركوبولو العالم البندقى، وأن أخـبار رحالة العرب وقصصهم أكـثر تنوعًـا وأشد حـيوية وقـوة مما نجده مـسطورًا في كـتب علماء اليـونان وجداولهم وأن علمهم الذى ضمنوه كتبهم يمتاز بأنه أعظم اختيارا ونقدًا وأكثر في التفاصيل مما ورد في كتابات الرحالة البندقى العظيم ماركوبولو.

* * *

وكان مـا كتبـه الرحالة المسلمون عـن البحار مـصدرًا لقصص البـحرية العربية. وهي - على قلة عددها - من أبدع القصص البحرية في آداب العالم على الإطلاق[١]. وحسبنا أن نشير هنا إلى قصـة السندباد البحرى وقصة عبد الله البرى؛ فـالثابت أن كـثيرًا من وقـائع القصص البـحرية منقـول من كتب الرحلات وكـتب العجـائب[٢]. بل رأينا أن كتب الـرحلات كانت مـصدرا الرحلات كانت مصـدرا لكثير من الجغرافيين. ومن ذلك أيضـا أن ابن الفقيه نقل في كتابه «مختصر البلدان» أجزاء كبيرة من رحلة سليمان السيرافي.

وفضـلا عن ذلك كله فـإن بعض الرحالة والملاحين المسلمين كـان لهم شأن عظيم في مـساعدة أعلام الرحالة الغـربيين في مجاهل إفريقـية والمحيط الهندي في نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة[٣].



---

(١) راجع كتاب «حديث السندباد القديم» للدكتور حسين فوزى ص١٨١ وما بعدها.

(٢) راجع كتاب حديث السندباد القديم ص١٩٢-٣٥٦.

(٣) انظـــر Ch. de la Ronciere: La Decouverte de L' Afrique au Moyen Age ج٢ ص٥ و٨٧ .

مراجع

- ابن بطوطة: تحفة النظار في عجائب الأمصار، ط. باريس والقاهرة.
- ابن جبير: الرحلة إلى المشرق، ط. ليدن ولندن والقاهرة.
- ابن حوقل: المسالك والممالك. ليدن ١٨٧٣
- ابن خرداذبة: كتاب المسالك والمماليك. ليدن ١٨٨٩
- أبو زيد السيرافي: ذيل لرحلة التاجر سليمان. نشره رينو. باريس ١٨٤٥
- الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (مختصر طبع روما ١٥٩٢)
- صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس. عن «نزهة المشتاق»، ط. دوزي ودي خوي. ليدن ١٨٦٦
- أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار. نشره فيليب حتى، جامعة برنستون ١٩٣٠ الاصطخري (أبو إسحاق الكرخي الفارسي): مسالك الممالك. ليدن ١٨٧٠ .
- انستاس ماري الكرملي (الأب): عرف العرب أميركة قبل أن يعرفها أبناء الغرب (مقال في العدد الثاني في المجلد ١٠٦ من مجلة المقتطف. فبراير سنة ١٩٤٥)
- البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد): الآثار الباقية من القرون الخالية. لندن ١٨٧٩

- تحقيق ما للهند مقالة مقبولة في العقل أو مرذولة. نشره ساخاو. لندن ١٨٨٧ .
- حسين فوزي (الدكتور): حديث السندباد القديم. القاهرة ١٩٤٣
- الدمشقي (شمس الدين أبو عبد الله الصوفي): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. سنت بطر سبرج ١٨٨٦
- سليمان (التاجر): سلسلة التواريخ. نشره لانجلس Langles سنة ١٨١١ ونشره رينو Reinaud مع ترجمة فرنسية في باريس سنة ١٨٤٥
- زكي محمد حسن (الدكتور): الصين وفنون الإسلام. الفاخرة ١٩٤١
- كنوز الفاطميين. القاهرة ١٩٣٧
- الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي. القاهرة ١٩٣٩
- التصوير في الإسلام. القاهرة ١٩٣٦
- عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر، ط. أوروبا والقاهرة.
- عبد الحميد العبادي: حديث الفتية المغررين من أهل لشبونة (مقال في العدد ١٣٦ من مجلة الثقافة بالقاهرة، ٥-٨ - ١٩٤١)
- عبد الوهاب عزام (الدكتور): البلغار المسلمون (مقلان في العددين ٢٦١و ٢٦٢ من مجلة الثقافة، ٢٨ - ١٢ -١٩٤٣و ٤- ١ -١٩٤٤)
- القزويني (زكريا محمد بن محمود): آثار البلاد وأخبار العباد. جوتنجن ١٨٤٨

- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات. جوتنجن ١٨٤٩

- محمد مصطفي زيادة (الدكـتور): رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة (محاضرتان ألقـيتا بدار مكتب التبادل الثقـافي للمغرب بمصر - ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة (١٩٣٩)

- المسـعـودي (أبو الحـسن على بن الحـسين بن على): مـروج الذهب ومعادن الجوهر، ط. باريس والقاهرة

- التنبيه والاشراف، ط. ليدن والقاهرة

- نقولا زيادة: رواد الشرق العربي. القاهرة ١٩٤٣

D'Avezac, Armand : Les iles fantastiques de l'Océan Occidental au moyen âge, Paris 1845.

Beazley, C.R. : The Dawn of Modern Geography, 3 vols. (vol. 1, London 1897)

Benjamin (of Tudela); The Travels of Rabbi Benjamin ben Jonas of Tudela, through Europe, Asia and Africa, from Spain to China. London 1764

Bretschneider, E : On the Knowledge possessed by the Ancient Chinese of the Arabs and Arabian Colonies and other Western Countries mentioned in Chinese Books, London 1871

Brunschwig R.: Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord. Paris 1940

Casanova, Paul : Notes sur les voyages de Sindbad le Marin, le Caire 1922 (Extrait du Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, t. xx)

Della Vida, L.: Une nouvelle source pour l'histoire de l'Afrique du Nord (Hesperis, t. XIX)
— Il regno di Granata nel 1465—66 nei ricordi di un viaggiatore egiziano (al-Andalus, 1933)

Ferrand, G.: Voyage du Marchand Arabe Sulayman en Inde et en Chine rédigé en 851, suivi de remarques par Abu Zayd Hassan vers 916. Trad. G. Ferrand. Paris 1922.

Relations des Voyages et texte géographiques Arabes, persans et turcs relatifs à l'Extèrme-Orient du VIII[e] au XVIII[e]s. Paris 1913—1914

Fraehn, Ch. M.; Ibn Foszlan's und anderer Araber Berichte über die Russen älterer Zeit und ihre Nachbarn. St. Petersburg 1823

Gibb, H.A.R. : Ibn Battuta, Travels in Asia and Africa (Translated and selected, with an introduction and notes, by Gibb, London 1929);

Goeje, J : La légende de saint Brandan, tirée des Actes du 8[e] Congrès International des Orientalistes, tenu en 1889 à Stockholm et a Christiania, Leyde 1890

Heyd; W : Histoire du commerce du Levant au moyen âge. Leipzig et Paris 1885 - 6

Hirth, F. and Rockhill, W.W. : Chau Ju-kua : His Work on the Chinese and Arab Trade in the XII^{e} and XIII^{e} centuries entitled Chu-fan-chi, trans. from the Chinese and annotated. St. Petersburg. 1911

G. Jacob : Studien in Arabischen Geographen. Berlin 1891 - 2

Jaubert, P.A. : Géographie d'Edrisi, traduite et accompagnée de notes, tome V et VI du Recueil de Voyages et de Mémoires publié par la Societé de Géogrphie de Paris 1836 - 40

Kammerer, A : La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquité. Le Caire 1929 at 1935

Marco Polo : The Book of Ser Marco Polo, the Venetian. Translated and edited by Sir H. Yule. London 1903

Nasir — i — Khosrau : Sefer Nameh, éd. Chefer. Paris 1881

Reinaud, J.T. : Mémoire géographique, historique et scietifique sur l'Inde, antérieurement au milieu du XI^{e} siècle de l'ère chretienne d'après les écrivains arabes, persans et chinois. Paris 1849.

Renaudot, E. : Ancient Accounts of India and China by two Mahomedan Mediaeval Travellers 1733, retranslated from the annotated French translation (1718) of ths texts of Sulayman the Merchant (851 A.D.) and Abu Zayd Hassan of Siraf (912 A.D.)

De la Roncière, Charles : La Découverte de l'Afrique au Moyen Age. le Caire 1925

De Saint — Martin, Vivien : Histoire de la géographie. Paris 1873

Schloezer, K. von : Abu Dolef Misaris Ben Mohalhal (texte arabe et traduction latine, Berolini 1845)

de Vaux, Carra : Les Penseurs de l'Islam (t. II, Paris 1921)

Youssef Kamal, Prince : Monumenta Géographicae Africae et Aegypti (tome III, époque arabe)

فهرس الكتاب

صفحة